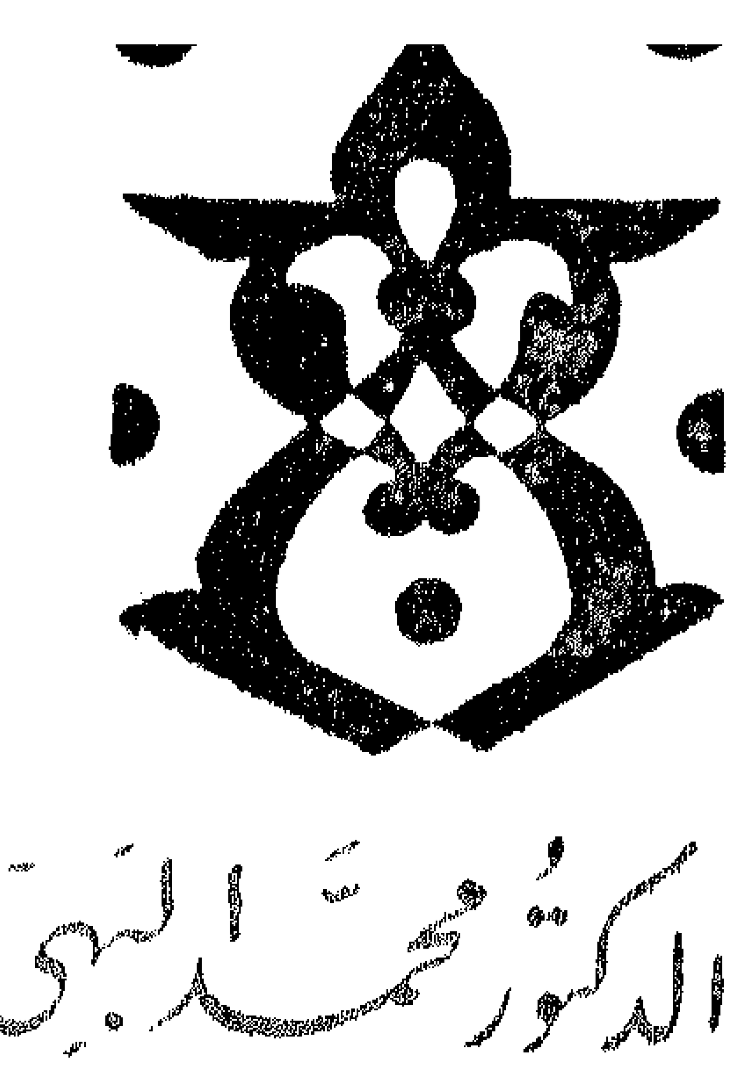
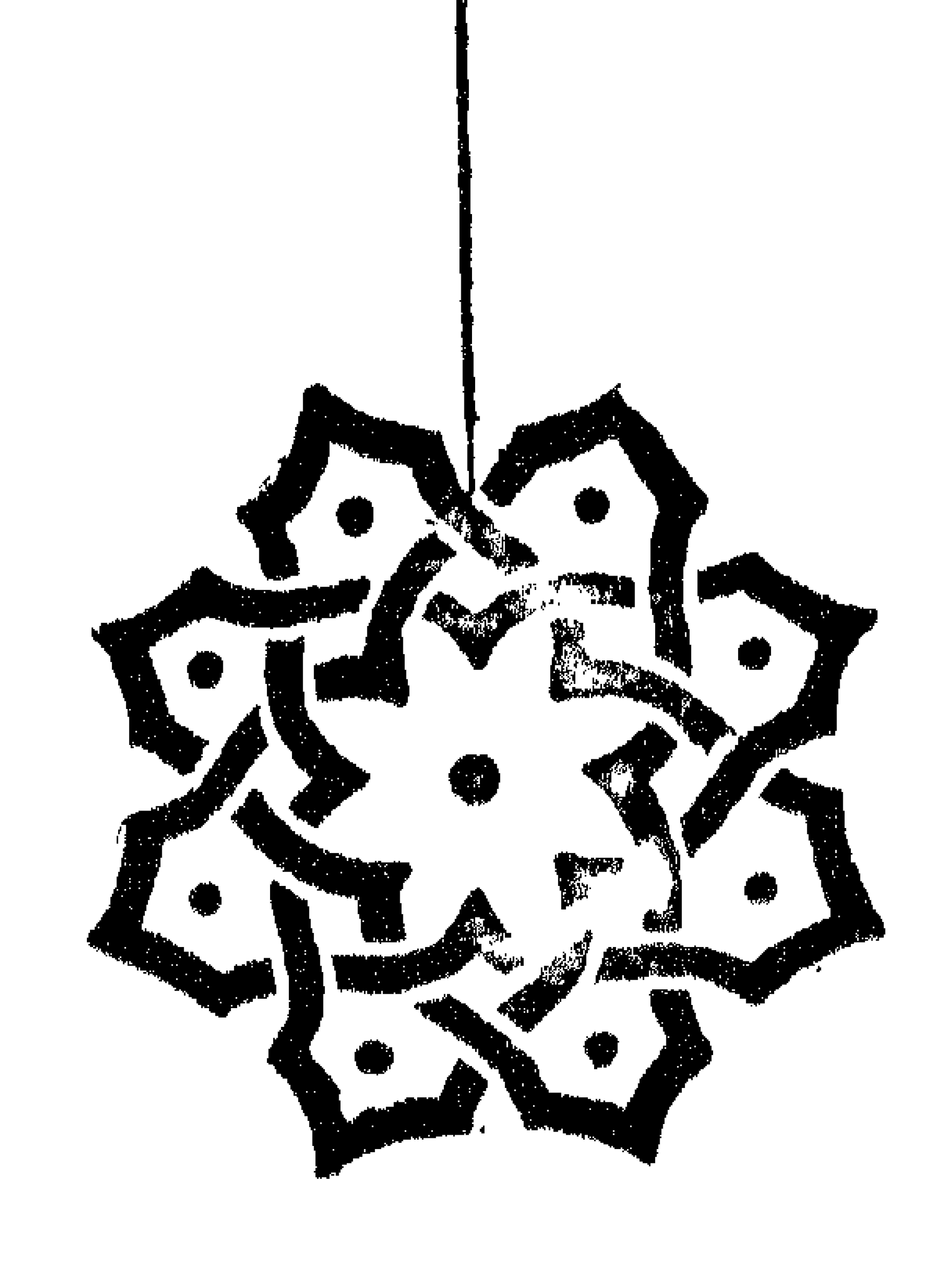


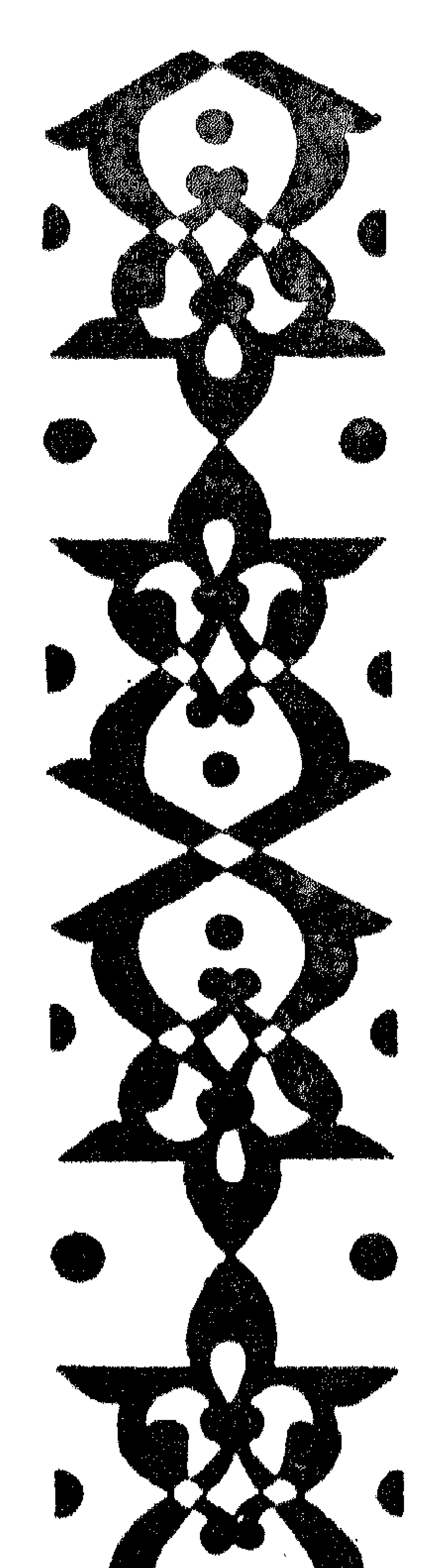
الدكتور محمد البهي



التفسير الموضوعي للقرآن الكريم



تفسير سورة الأنعام





الناشر
مكتبة وهبة
١٤ ـ شارع الجمهورية ـ عابدين
القاهرة ت : ٩٣٧٤٧٠

اهداءات ٢٠٠٢
أ.د/مصطفى الصاوى الجوينى
الاسكندرية

الدكتور محمد البهي

التفسير الموضوعي للقرآن الكريم



القرآن في مواجهة المادية

الناشر : مكتبة وهبة
١٤ شارع الجمهورية - بعابدين
القاهرة - ت : ٩٣٦٤٧٠

الطبعة الثانية
رمضان ١٣٩٨ هـ أغسطس – ١٩٧٨ م

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيـد

• إن الأنعام – وهى ثروة الحيوان – تمثل الدور الرئيسى فى اقتصـاد المجتمع القبلى الصحراوى : وهو مجتمع يعيش على الأمطار : فى الرعى والسقى :: وعلى الحاصلات الزراعية الصحراوية : كالبر ، والشـعير ، وثمرات النخيل والأعناب ::

والأنعام كما هى ثروة فى ذاتها ، فإنها عماد الحياة الصحراوية : فى التنقل ، والإقامة .. والاقتيات .: والوقاية من الحر والبرد .. والمعاملات المالية والتجارية .. والرخاء والعسر . ودورها هناك فى الأهمية يشبه دور الصناعة فى المجتمع الحضارى الصناعى : والزراعة بعد الأنعـام – تأتى فى المرتبة الثانية فى اقتصاد المجتمع القبلى الصحراوى . وطالما هو مجتمع قبلى يعيش فى الصحراء وعواصمها .. فإنه بعيـد عن الصناعة ، إلا عن تلك الحرف الأولية التى تدفع إليها ظروف الحياة ، التى تسيطر عليها :

وإذن : ثروة الحيوان – وزراعة المحاصيل المناسبة ، وغرس أشجار الفاكهة البيئية .. والتجارة فى الحيوان وما تأتى به الزراعة : تكون عناصر الاقتصاد القبلى فى هذا المجتمع الصحراوى :

• ومجتمع شبه الجزيرة العربية هو واحد من المجتمعات القبلية الصحراوية : يعيش على ثروة الحيوان كجانب رئيسى فى اقتصاده ، وعلى الزراعة البيئية ، والتجارة فى إنتاج الحيوان ومحاصيل الزراعة : والمجتمع القبلى ،

وإن كان مجتمعاً متفرقاً فى القبائل العديدة .. إلا أنه مجتمع مترابط تحت زعامة دينية موحدة. وقد كان مجتمع شبه الجزيرة العربية مرتبطا بمكة وبالزعامة الدينية فيها ؛ التى يمثلها كهان الأصنام حول البيت العتيق . ولذا كان الحج إلى هذا البيت قبل الاسلام واجبا مقدساً لدى جميع القبائل العربية فى شبه الجزيرة ، يطوفون حول البيت وأصنامه . وبذلك يؤدون العبادة لها ، كما يتلقون التوجيه من كهانها :

● وكان توجيه الكهان — وهم أصحاب الزعامة ، والسلطة الدينية فى الوقت نفسه — يقوم على خرافة : أنهم يتلقون علم الغيب لله : ممن يعوذون بهم من رجال الجن كما يقص ذلك القرآن عنهم : « **وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقاً . وأنهم ظنوا كما ظننتم** (أنتم أيها الكهان) **أن لن يبعث الله أحداً** »(١) .. وأن رجال الجن بدورهم للحصول على علم الغيب — وهو علم المولى جل جلاله — يسترقون السمع من السماء كما يقصه كذلك فى قوله : « **وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع ، فمن يستمع الآن** (أى بعد بعثة الرسول محمد عليه السلام) **يجد له شهابا رصداً** »(٢) : وإذن الكهان فى توجيهم ينقلون — فى زعمهم وادعائهم — عن الله : فيما يصدرون من : حرام :: وحلال .. وأمر :. ونهى .

● واستغلوا اعتقاد التابعين لهم فى « خرافة : الجن .. وعلم الغيب » :: وتدخلوا فى شئون أموالهم : فى الأنعام ، والحرث — أى الزراعة — ، لمصلحة تعود عليهم أنفسهم : أى لمصلحة تعود على الكهان من أموال تابعيهم : تدخلوا : فقالوا هذا لله :: وهذا لشركائنا .. وقالوا : هذا حلال :: وهذا حرام :: وهذا حجر ، أى ممنوع لا يجوز الطعام منه إلا لمن يأذنون له ::

---

(١) سورة الجن : ٦ ، ٧ (٢) سورة الجن : ٨ ، ٩

وما فى بطون هذه الأنعام خاص بالرجال .. وذاك النوع شركة بين الرجال والنساء .. وقالوا : غير ذلك ، مما يصور وصاية لهم على الأموال الخاصة تحت شعار : الله . كما تصنع الدولة أو السلطة السياسية فى بعض نظم الحكم المعاصرة ، بالأموال الخاصة تحت شعار معين . والكهان كانوا يمثلون السلطة الدينية فى المجتمع القبلى فى شبه الجزيرة . وكان شعارهم : المحافظة على ما لله والأصنام ، معاً .

● فجاءت سورة الأنعام — وحملت السورة اسم الأنعام باعتبار أن الأنعام تمثل الجانب الرئيسى فى الثروة القومية للمجتمع القبلى فى شبه الجزيرة — تنكر على الكهان تدخلهم فى الأموال الخاصة .. وتنفى نسبة ما يقولون من حلال وحرام ، إلى الله .. وتؤكد افتراءهم واختلاقهم على الله ، فيما كانوا يوجهون به أتباعهـــم فى شؤون الأموال . كما جاءت لتضع دستوراً عاماً للحلال والحرام .. ومقياساً لا يختلف لتقييم أعمال الناس ، يستطيع كل إنسان أن يعرف قيمة عمله منه ، دون الرجوع إلى وسيط بينه وبين الله .

فسورة الأنعام هى سورة الأموال الخاصة وموقف الإسلام منها . هى السورة التى تنكر المصادرة والتدخل فى شأن الأموال من أية سلطة : دينية أو سياسية ، إلا طبقاً للدستور العام الذى سجلته هى فيها . وإذا سميت : بالأنعام .. فقط : لأن الأنعام هى رمز الأموال ، التى كانت للمجتمع إذ ذاك . ولكن بما جاءت من آيات فى هذا الشأن : تصور تصويراً دقيقاً ، وحازماً : موقف القرآن من الأموال المتداولة بين أيدى الناس . والمتحدث عن : الاقتصاد فى الإسلام ، لا غنى له إطلاقاً عن إبراز دور : الأنعام فى الملكية الخاصة ، والمحافظة عليها .

والله الموفق

الدكتور : محمد البهى

تفسير سورة الأنعام

مقدمة

• تتناول سورة الأنعام الحوار مع المشركين المكيين – وهم ماديون – فى جانبى : الاعتقاد ، والسلوك . كما تعقب على ادعاءاتهم فى كل جانب من هذين الجانبين ، بتوضيح هداية الله فيما يدعون ، وقبـل كل شىء بتوضيح وحدانية الله فى الوجود :

• ففى جانب الاعتقاد يذكر القرآن فى هذه السورة بعض ما عرف لهؤلاء المشركين من موقفهم من القرآن ، ومن تصورهم لله ، ورسالته إلى الرسول عليه الصلاة والسلام : يذكر :

(ا) إنكارهم : تكليف البشر بالرسالة ، وادعاءهم بقبولها لو نزلت بها الملائكة (آيات : ٨ ، ٩١) ؛

(ب) وطلبهم دليلا محسوساً مادياً – وليس الوحى بالقرآن – على صحة رسالته عليه السلام (آية : ٣٧) .

(ح) وادعاءهم : أن القرآن من أساطير الأولين (آية : ٢٥) ؛

(ى) وإنكارهم للآخرة ، وإعلانهم : الإيمان بالدنيا وحدها (آية : ٢٩)

(ﻫ) وادعاءهم : أن الجن شركاء لله فى علم الغيب (آية : ١٠٠) ؛

(و) وادعاءهم : أن الله ينسل وأن له أولاداً من بنين وبنات (آية : ١٠٠)

• وفى مجال ما يحل وما يحرم فى التصرفات ، يسجل القرآن عليهم :

(ا) ادعاءهم : بأن فى أموال الناس فى الزراعة والحيـوان – وهى الأموال المتوفرة عادة فى كل مجتمع إنسانى : بدائى أو حضارى – نصيباً يخصص لأصنامهم ، وينفق على خدمة هذه الأصنام (آية : ١٣٦) ؛

(ب) ادعاءهم : أن أصنامهم ترضى – بل وتحث – على قتل الأولاد خشية الفقر (آية : ١٣٧) :

(حـ) ادعاءهم : وقف الإطعام من بعض الإنتاج الزراعي والحيواني ، إلا على خدم الأصنام ، وإلا على الرجال دون النساء (آية : ١٣٨) .

(ى) وادعاءهم : تحريم الأكل من بعض ظهور الأنعام ، وهى البحائر ، والسوائم ، والحوامى (آية : ١٣٨) :

(هـ) وادعاءهم : حل أكل بعض الحيوانات عندما تذبح ، دون أن يذكر اسم الله عليها ، اكتفاء بذكر أسماء أصنامهم عليها (آية : ١٣٨) .

(و) وادعاءهم : أن الأجنة التى فى بطون البحائر والسوائب والحوامى إن نزلت حية اختص بحل أكلها : الرجال وحدهم ، وإن نزلت ميتة : كانت للرجال والنساء على السواء (آية : ١٣٩) .

• ولتقرير ما يحل وما يحرم فى مجال الحلال والحرام – بعد عرض ما ينبغى وما لا ينبغى فى مجال الاعتقاد عقب ذكر كل عقيدة نسبت إليهم – تعرضت هذه السورة فى آياتها الأخيرة لتوضيح هداية الله فى مجال السلوك خاصة ، فأعلن القرآن :

(ا) خسران الذين يقتلون أولادهم سفهاً ، ويحرمون ما رزقهم الله افتراء على الله (آيات : ١٤٠ ، ١٤١ ، ١٤٢ ، ١٤٣ ، ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠) :

(ب) كما أعلن دستور الحلال والحرام لمجتمع إنسانى حضارى (آيات ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ١٥٣) .

(حـ) وأخبر : بأن نزول الملائكة لا يكون برسالة للبشر ، ولا يتم إلا فى المرحلة الأخرى للحياة (١٥٨) .

(د) وأعلن الهدف من وجود المجتمع الذى أرسل إليه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو : الخلافة فى الدنيا ووضعه موضع الاختبار فى الطاعة (آية : ١٦٥) .

* * *

• وسورة الأنعام بما تسجله عن المشركين المكيين ، وبما تفنده من عقائدهم وسلوكهم ، وبما ترسمه من عقيدة سليمة وسلوك مستو مستقيم لمجتمع إنسانى حضارى .. تسهم بقدر كبير فى القضاء على « الخرافة » وعلى « الاستغلال المنحرف » فى البشرية عن طريق العقيدة :

فإشراك الجن لله فى علم الغيب فى اعتقاد من يعتقد ذلك .. هو السبب فى خضوع الإنسان للأوهام ، وفى تجميد حركته ونشاطه فى الحياة ، وفى قبوله للاستغلال السىء ممن لهم توجيه عقيدى عليه :

... وادعاء : أن للأصنام نصيباً فى الأرزاق من الحيوان والنبات ، يؤخذ ممن يعبدون هذه الأصنام ليوزع على القائمين بخدمتها .. يمثل الاستغلال الحقير عن طريق استخدام الدين والعقيدة ممن يباشرون التوجيه به .

... وليس أقل من أثر الخرافة والاستغلال السىء للدين على الإنسان فى توجيهه ، وفى مواقفه ، وسلوكه فى الحياة .. تصوير المعبود — وهو الله جل جلاله — بأنه على شاكلة الإنسان : فى أنه يلد ذكوراً وإناثاً . إذ من شأن هذا التصوير : إسناد النقص إلى الله ، وهو العجز عن خلق الذكو والإناث إلا عن طريق الصاحبة والولد ، كما يفعل الإنسان . وهنا يكون لله شريك فى الوجود وهو صاحبته . كما أنه من شأنه : جواز رفع الإنسان إلى مستوى الله فى المعبودية . وهنا لا تستقر الوثنية فى المجتمع البشرى فحسب . وإنما مع ذلك : تهدر قيمة الإنسان العابد لإنسان مثله ، لو رفع هذا الانسان المعبود إلى درجة الله فى عبادته ، إبقاء على هذه المشابهة .

• وسورة الأنعام إذن توجه الإنسان :

١ – ضد الاعتقاد فى الخرافة ، وتدعو إلى التخلص منها .

٢ – وضد الاستغلال بالدين ، وتطلب عدم الوقوع تحت تأثيره .

٣ – وضد التصور البدائى لله ، لأنه يشين الإنسان ويهدر كرامته .

والقرآن – عن طريق هذه السورة – ينصح الإنسان إذن بمعرفة الواقع كما هو ، وبالتالى ينصحه بسلوك الطريق الموصل إلى معرفته ، وهو طريق العلم واليقين . وينصحه أيضا : بأن شأن الدين هو للهداية والتوجيه ، وليس مصدراً للمهنة والاحتراف ، فضلا عن الاستغلال به .

وإذ يبعد القرآن التصور البدائى عن ذات الله جل جلاله .. فإنه لا يريد أن يضع هذه الذات فى إطارها الواضح الصحيح فقط . وإنما يريد مع ذلك الحيلولة دون أن يسقط الإنسان فى الوثنية مرة أخرى ، ودون أن يهبط عن مستواه الإنسانى المكرم عند الله .. إلى مستوى الممتهن ، الوضيع ، عندما يرفع إنسانا فى احترامه ويخضع له إلى درجة الله فى عبادته .

• وهذه الأمراض الاجتماعية الثلاثة من : الاعتقاد بالخرافة ، والاستغلال بالدين والعقيدة ، والتصوير البدائى لله كلها أو بعضها .. هى السبب فى تخبط البشرية فى التوجيه فى وقتنا الحاضر ، كما كانت فى الماضى ، وفى تناقضاتها العديدة فى الفكر ، وفى صراع مجموعاتها : بعضها ضد بعض ، وفى تمزيق ما يجب من الأواصر القوية فى ترابطها وتعاونها ، وفى انحطاطها فى السلوك ، ثم تقدمها فى الحضارة المادية ، وفى العلم ، والصناعة التطبيقية :

• فوضع « الحزب » فى بعض الاتجاهات الفلسفية كالماركسية ، واستمرار وضع الكنيسة فى بعض الاتجاهات الدينية كالكثلكة – وضع تلك وهذا – فى موطن القداسة موضع الله .. هو خرافة الإنسان فى وقته المعاصر .

• ووضع الإنسان الأول فى الحزب أو الكنيسه موضع الله فى العصمه ، مع وجوب الطاعة له .. هو استغلال للعقيدة الوثنية .

• وإنزال الله من عليائه ليحل فى الإنسانية أو فى العلم مرة ، وفى الكنيسة مرة أخرى .. تصور بدائى لله .

إن الله « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير »

* *

التفسير

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ
الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ (١)

ابتدأت هذه السورة بالثناء والحمد له: « الحمد لله » . وهو ما يجب على المؤمن أن يبادر به المولى فى الاتصال به سبحانه ، اعترافاً بنعمه ، ووفاء لحقه فى الشكر عليها . والسورة إذ تبتدىء بالحمد والثناء على الله لتقرر من أول الأول : أن موقف الكافرين به من المكيين هو موقف ضد خصائص الفطرة البشرية .. موقف المنكر للنعم ، وللآيات الكونية العظيمة الدالة على تفرده فى الوجود وحده . إذ هو : « الذى خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور (فهو الخالق لما ارتفع وسما فى الوجود ، ولما استقر وترسب فيه ، وكذلك لما قابل بعضه بعضاً من النور والظلمة فيما ارتفع واستقر على السواء . وخلق الأمور المتقابلة دليل أكيد على القدرة الفذة التى توصل حتما إلى وحدانيته فى الكون كله . ووضوح هذا الدليل على القدرة الفذة لخالق الكون من شأنه أن لا يحجب الأبصار عن رؤيته حجاب من هوى وغرض فى نفس إنسان ما) ثم الذين كفروا بربهم يعدلون (ولكن عمى الشرك والوثنية هو : الذى ينقل بعض المضللين بنعمة الله من الإيمان به وحده إلى الآخرين من الشركاء .. هو الذى يجعلهم يعدلون عن وحدانيته ويكفرون بها .. إلى الإيمان بعديد من أصنامهم) » :

﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ ﴿٢﴾ ﴾

ثم وجه الخطاب إليهم بقوله : « هو الذى خلقكم من طين (أى كما خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور . خلقكم كذلك ، ومن طين أولا : « **ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين . ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين . ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة . فخلقنا المضغة عظاما . فكسونا العظام لحماً . ثم أنشأناه خلقاً آخر**». (أى مباينا لما كان عليه أول الأمر : فقد كان جماداً فأصبح حيواناً ، وكان أبكم فأصبح ناطقاً ، وكان أصم فأصبح سميعاً ، وكان أكمه فأصبح بصيراً) **فتبارك الله أحسن الخالقين . ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون** »[1] .. وخلق الإنسان من طين تحول منه إلى ما هو عليه الآن حتى أصبح تحوله يعتبر خلقاً جديداً آخر له ، مباينا تماما لما كان عليه خلقه الأول .. من شأنه أن يودع فى فطرة الإنسان الإيمان بخالقه أولا وأخيراً ، وهو الله سبحانه وتعالى ، وليس الكفر به كما يصنع هؤلاء المشركون) ، ثم قضى أجلا (بأن يموت بعد أن كان حيا ، كما ذكر فى قوله فى سورة «المؤمنون» من قبل : ثم إنكم بعد ذلك لميتون ») وأجل مسمى عنده (بأن يحيا من جديد بعد موته وفنائه ، فيبعث ، على نحو ما ذكر فى قوله كذلك : « ثم إنكم يوم القيامة تبعثون ») وبإماتة الله للإنسان بعد أن خلقه ، وببعثه ، والبعث حياة بعد موت .: تتأكد قدرة المولى سبحانه ، كما تأكدت بخلقه من طين : تطور بعده إلى وضعه الحاضر . وإذن فى الانسان عدة دلائل من شأنها أن تحمله على الايمان بالله :

---

(١) المؤمنون : ١٢ ، ١٦

أولا : خلقه من طين :

وثانيا : صيرورته وتطوره فى الخلق إلى وضعه القائم الآن ، وهو أنه كائن به الحياة والحركة ، والعقل :

وثالثا : إفناؤه بعد حياة .

ورابعا : إحياؤه بعد موت » .

ثم أنتم تمترون (ولكن مع كل هذه الدلائل العديدة مجتمعة تشكون فى وحدة ألوهيته ، وتقبلون على أصنام تعبدونها وتجعلونها شركاء له ، وهى لا تخلق شيئا ، ولا تسبب نفعا ولا ضراً : « **أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون ؟ . ولا يستطيعون لهم نصراً . ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم . سواء عليكم . أدعوتموهم أم أنتم صامتون**»(١)» .

فلا الآيات الكونية ، ولا الآيات الأخرى الذاتية التى تنطوى عليها ذات الإنسان فى خلقه ومصيره .. بمحركة لهؤلاء المشركين المكيين الماديين ، وبدافعة لهم نحو الإيمان بالله وحده . وإنما استغراقهم فى الوثنية ، ووقوعهم تحت المنفعة المادية وحدها لم يزل يشككهم .. وبالتالى لم يزل يحول بينهم وبين هذا الايمان بالله وحده .

﴿ وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ ﴿٣﴾ ﴾

ولكن رغم تشككهم فى وحدانيته فهو الله فى الكون كله : « وهو الله فى السموات وفى الأرض (والتعبير بالسموات والأرض مما قصد به الشمول فى الوجود كله) ويعلم سركم وجهركم (أى وكذلك يعلم ما تسرون به

(١) الاعراف : ١٩١ ، ١٩٣

بين خواص أنفسكم وما تعلنونه) ويعلم ما تكسبون (وبالإضافة إلى ذلك فهو سبحانه يعلم ما تكسبون وتباشرونه من أعمال الخير والشر على السواء).
وشأن من يوجد الكون كله ، ويقف على كل ألوان العلم ، وعلى كل ضروب الكسب والمباشرة . شأن المستقل فى استحقاقه العبادة ، وهو الواحد فى ألوهيته . لأنه لو وجد شريكان فى الألوهية . . لما أمكن للشريك أن يكون صاحب نفوذ فى منطقة شريكه الآخر ، ولما أمكن له أن يعلم بما يجرى فيها سراً أو جهراً ، ولما أمكن له أخيراً أن يعلم ما تكسبه كل نفس فيها من خير وشر : والله سبحانه إذن : هو الواحد فى ألوهيته ، رغم أن يتردد فى الاعتراف به متردد منكم :

وَمَا تَأْتِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ مِّنْ ءَايَٰتِ رَبِّهِمْ إِلَّا كَانُوا۟ عَنْهَا مُعْرِضِينَ (٤) فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ (٥) أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ (٦)

وتردد هؤلاء المشركين الماديين المكيين فى الاعتراف بوحدة الألوهية لله سبحانه لم يكن صادراً عن قصور فى الأدلة الكونية والبشرية التى تدل على وحدانيته فيها . ولكن عن استغراقهم فى الشرك ، وبقائهم فيه جيلا بعد جيل ، وعن إفادتهم مادياً من البقاء عليه فى زعامة قومهم وفى الاحتراف بأصنامهم : وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين (إذ تعددت الأمارات فى مواجهتهم . وهى أمارات خاصة بهم كالقرآن ، وأمارات أخرى يسجلها التاريخ ويرويها لهم . وهم بالرغم من ذلك يعرضون عنها . وإعراضهم عندئذ لا يدل إلا على أنهم لا يريدون الاقتناع ، ويريدون فحسب البقاء فيما هم فيه) . فقد كذبوا بالحق لما جاءهم (اذ عندما نزل

إليهم القرآن ـ وهو الحق فى ذاته ، وهو آية الله الكبرى لرسوله عليه السلام ـ واجهوه توا بالتكذيب ، دون ترو وتأمل فيه) فسوف يأتيهم أنباءما كانوا به يستهزئون (أى وسوف يعلمون مصير هذا القرآن ، آية الله العظمى لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم ، الذى استهزأوا به وكفروا به معارضين إياه .. سوف يعلمون النصر المبين لرسالته على الوثنية والإلحاد ، كما يعلمون الهزيمة النكراء لمن كفروا به وعارضوه . وهى هزيمة تصيبهم فى دنياهم ، وعقاب أليم يلحق بهم فى آخرتهم) :

« ألم يروا : كم أهلكنا من قبلهم من قرون مكناهم فى الأرض مالم نمكن لكم (أى ألم يشاهدوا ويقفوا على أحداث التاريخ ويستخلصوا منها عدد المجتمعات البشرية ـ وهى كثيرة ـ التى أبادها الله وأفناها عقابا لها على جحودها وكفرها بنعمة الله ، وإشراكها موجودات أخرى معه فى الألوهية ، وكانت هذه المجتمعات ، بفضل الله وحده ، على قسط كبير من القوة والتمكن فى السيادة لم يصل إلى مستواه هؤلاء المكيون المشركون والرافضون لرسالته عليه السلام) وأرسلنا السماء عليهم مدرارا ، وجعلنا الأنهار تجرى من تحتهم (أى ومع نعمة الله بالقوة والتمكن فى الحكم والزعامة على تلك المجمعات البائدة .. فإنه سبحانه أنعم عليهم كذلك بالمطر الغزير عند حاجتهم إليه ، لسقى : إبلهم ، ومراعيهم ، وحاصلاتهم الزراعية المتنوعة كما أجرى أنهاراً لهذه المجتمعات بالمياه العذبة تستخدمها فى الشرب ، وغرس الأشجار : **« فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ما كان لكم أن تنبتوا شجرها »(١) .. « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضرا ، نخرج منه حبا متراكبا ، ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه ، إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون »(٢)** . وذكر الإنعام على تلك المجتمعات : بمياه

(١) النمل : ٦٠ (٢) الأنعام ، ٩٩

المطر والأنهار .. هو توضيح لأسباب قوتها وتمكنها ، عن طريق الثراء في مصادر العيش . إذ لا شيء يذل المجتمع غير الفقر والحرمان بسبب الجدب ، ولا شيء يعز المجتمع سوى وفرة المحاصيل الزراعية بسبب خصوبة الأرض ومداومة السقى والرى) فأهلكناهم بذنوبهم ، وأنشأنا من بعدهم قرناً آخرين (أى ورغم قوة هذه المجتمعات وتمكنها فى الحكم والسيادة ، ورغم وفرة ثرائها ، ورخاء عيشها . . فإن الله أهلكها بسبب جرمها الإثيم ، وهو جرم الكفر برسالة الله ، ومعارضة الرسول الذى جاء بها ، وأقام على أنقاضها .. مجتمعات أخرى ، تدعو الله وحده لا شريك له . وهكذا : سنة الله فى كونه : يبتلى بالخير والشر معاً : يبتلى بالنعم من : القوة والتمكن ، والرخاء في عيشة الحياة . فإذا لم تحمل النعم المنعم عليهم . على الإيمان بالله وحده : كان الابتلاء بالشر : بالفقر والحرمان ، وبالجدب والشقاء ، ثم الهلاك والإفناء : **« وبلوناهم بالحسنات والسيئات ، لعلهم يرجعون »**(١) . **« ونبلوكم بالشر والخير ، فتنة والينا ترجعون »**(٢) **« ولقدأرسلنا الى أمم من قبلك فاخذناهمبالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون . فلولا اذ جاءهم بأسنانضرعوا ، ولكن قست قلوبهم ؛ وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون . فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبوب كل شيء حتى اذا فرحوا ابما أوتوا أخذناهم بغتة فاذا هم مبلسون »**(٣) وكل مجتمع بشرى هو إذن مبتلى من الله : بالنعم والخير ، أو بالسيئات والشر .. كل مجتمع بشرى هو إذن مبتلى بالقوة والرفاهية ، أوبزيادةالفقر والجدب . وهذا المبدأ يحكم المجتمعات : فى الماضى ، والحاضر، والمستقبل وليس هناك من سبيل يضمن لها بقاء القوة والرخاء ، أو يرفع عنها الشقاء والحرمان ، سوى سبيل الله .. سوى الإيمان به وحده ، والعمل بهدايته ؛ والمجتمعات التى تعتز اليوم بقوتها المادية أو برخائها وتشرك مع الله إلها آخر

---

(١) الاعراف ، ١٦٨ (٢) الأنبياء ، ٣٥

(٣) الانعام ، ٤٢ ، ٤٤

إما إله العلم ، أو إله المال :. سيفنيها حتما ، إما بقتال بعضها بعضا ، أو بما تصنعه هى نفسها من وسائل التدمير والتخريب ، إن لم تعد إلى الله وإلى روحية الإنسان ، التى تقوم على وحدانية الله) » .

★★★

أولا : ادعاءات المشركين الماديين فى الاعتقاد :

وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَٰبًا فِى قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾

ومن هذه الآية تبتدىء سورة الأنعام : بذكر ادعاءات المشركين الماديين من المكيين فى جانب الاعتقاد أولا ، ثم فى جانب ما يحل وما يحرم بعد ذلك . وادعاءاتهم فى جانب الاعتقاد قد يشاركهم فيها غيرهم من الماديين الآخرين ، كما جاء هنا فى قوله تعالى : «ولو نزلنا عليك كتابا فى قرطاس (أى فى صحيفة مشاهدة عيانا) فلمسوه بأيديهم (أى فأدركوه إدراكا حسياً يلمس باليد، ولا مجال عندئذ لإنكاره ومعارضته) لقال الذين كفروا (أى لقال الذين من شأنهم أن يكفروا بما لم يكن متوارثاً فيهم : فى عرف أو فى تقاليد ، أو فى اعتقاد .. أى لقال هؤلاء مع ذلك ادعاءا ورميا بغير حق) : إن هذا إلا سحر مبين (أى إن هذا الا خداع واضح ، يشبه صنعة السحر فى التأثير : والسحر تمويه بالباطل فى صورة تخيل الواقع) :

ونسبة الخداع إلى دين الله — رغم وضوح صدقه ، وواقعية مبادئه — هو ادعاء أو اتهام يوجهه الماديون كل عصر ، لتغطية تمسكهم بالمادى وحده ، وإنكارهم ما عداه من القيم العليا فى حياة الإنسان : فقد رمى دين الله بالأمس بأنه سحر ، ويرمى اليوم بأنه أفيون الشعوب . والسحر والأفيون كلاهما لا يعرض الواقع ، ولكن يموه به فى التصور فحسب . مع أن الإنسان

المادى نفسه لا يساير الواقع . لأنه انتهازى ، ومنفعى ، ودنيوى ، وأنانى.
ومسايرة الواقع تقضى بالصراحة وسلوك الطريق المكشوف .

﴿ وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الْأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنظَرُونَ ﴿٨﴾ ﴾

وكذلك ادعاء المكيين من الماديين المشركين بأن رسالة الله لا يأتى بها إنسان ، وإنما يكلف بها ملك من الملائكة .. وهو ادعاء كان شائعاً بين المعارضين للرسل السابقين ، وبسبب ادعائهم هـذا : ينكرون الرسول ويكفرون برسالته ، ويطالبونه على سبيل التحدى بأن يدعو ربه : بأن ينزل مع الرسول ملكاً على الأرض ،إن كان صادقاً فى رسالته ، أو يدعوه: بأن يتجلى لهم ليشاهدوه عيانا ، أو يلقى إليه كنز ، أو تكون له جنة يأكل منها ، أو يكون له مظهر المترفين .. إلى غـير ذلك من الأمارات المادية المحسوسة . ذلك لأن إيمانهم مرتبط بالمحسوس وحده .

والقرآن يحكى هـذا الادعاء ، وما يطالب به الماديون من الأمارات المادية فيما سبق على رسالة الرسول محمد عليه الصلاة والسلام . فيقول فى شأن هذا الادعاء ، وأنه أمر لم يختص به رسول بعينه : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا (وهم الماديون الذين ينكرون الآخرة فى عهد كل رسول) : **لولا أنزل علينا الملائكة . أو نرى ربنا . لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتو كبيرا** (أى طغوا طغيانا واضحا)(١) .

ويقول فى شأن المعارضين لرسالة نوح : « **فقال الملأ الذين كفروا من قومه ما هذا إلا بشر مثلكم يريد أن يتفضل عليكم** (أى يتميز بينكم برياسة وزعامة) **ولو شاء الله لأنزل ملائكة . ما سمعنا بهذا فى آبائنا الأولين**»(١) .

---

(١) الفرقان ، ٢١ (٢) المؤمنون ، ٢٤

وفى شأن المعارضين : من عاد ، وثمود : لهود ، وصالح جاء قول القرآن الكريم : « فإن أعرضوا فقل : أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد .. وثمود . إذ جاءتهم الرسل من بين أيديهم ومن خلفهم : أن لا تعبدوا إلا الله ! قالوا : لو شاء ربنا لأنزل ملائكة . فإنا بما أرسلتم به كافرون »(١) .

وكذلك فى شأن معارضة فرعون وملائه لموسى ورسالته ، يقول الله تعالى « فلولا ألقى عليه أسورة من ذهب . أو جاء معه الملائكة مقترنين »(٢) .

وفى شأن الرسول محمد صلى الله عليه وسلم جاء غير هذه الآية هنا قوله : « وقالوا : مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق. لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى إليه كنز . أو تكون له جنة يأكل منها. وقال الظالمون .إن تتبعون إلا رجلا مسحورا »(٣) «وقالوا . ياأيها الذى نزل عليه الذكر (القرآن — ويقصدون الرسول عليه السلام) إنك لمجنون لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين(٤) .

وكان رد القرآن على طلب المعارضين للرسالة الالهية فى كل وقت ، فى شأن تكليف الملك بالرسالة ، دون الإنسان : أن ذلك مما ليس من اختصاص الملائكة ، لأنهم أرواح خالصة ، لا تتصل بالمادة ، فهى بسيطة غير مركبة : كما جاء فى خطاب الرسول عليه السلام فى هـذا الشأن : « قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا »(٥) . أو يرد بأن هذا الطلب لا يدخل فى دائرة الرسالة التى تناط بالرسول . على نحو ما قيل للرسول أيضاً : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ، وضائق به صدرك أن يقولوا : لولا أنزل عليه كنز ، أوجاء معه

---

(١) فصلت : ١٣ ، ١٤
(٢) الزخرف : ٥٣
(٣) الفرقان : ٧ ، ٨
(٤) الحجر : ٧
(٥) الاسراء : ٩٥

ملك • إنما أنت نذير • والله على كل شئ وكيل »[1] . . أو يرد بأن الملائكة عندما يراهم البشر لا يرونهم إلا وقت الجزاء بعد البعث . وهو وقت تنتهى به الفرصة بالنسبة للإيمان ، والعمل . وإذن ليست هناك فائدة لمن مات على كفره فى طلب الملك بالرسالة ، بدل الإنسان الرسول . على نحو ما قيل فى صورة عامة بالنسبة للرسل جميعاً : « يوم يرون الملائكة (أى يوم يرى المعارضون الملائكة وجها لوجه) لابشرى يومئذ للمجرمين (أى لا أمل عندئذ للكافرين . لأن الأمر قد قضى وانتهى بالنسبة للإيمان والكفر) ويقولون : حجراً محجوراً (أى وتقول الملائكة ساعتئذ لهؤلاء المجرمين الظالمين لأنفسهم بالكفر والمعارضة : حراماً محرماً عليكم دخول الجنة » [2] . . وعلى نحو ما جاء هنا فى آية الأنعام) : وقالو لولا أنزل عليه ملك ، ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر (أى عندما ينزل الملك ويلقى الناس: يكون أمر الإيمان ، والكفر قد انتهى ، ولا جدوى عندئذ من طلب نزوله . إذ قد فاتت فرصة الاختبار والابتلاء ، وجاء وقت الجزاء) ثم لا ينظرون (ومع انتهاء الأمر وفوات الفرصة فالمعارضون — وهم الكافرون الظالمون أنفسهم — لا يمهلون فى جزائهم ، وملاحقة العقاب بهم . ونظير ذلك قوله تعالى فى سورة السجدة : « قل : يوم الفتح لا ينفع الذين كفروا إيمانهم ، ولا هم ينظرون » .

﴿ وَلَوْ جَعَلْنَٰهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَٰهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ ﴿٩﴾ ﴾

وتضيف هذه الآية سبباً آخر فى عدم إرسال الملائكة إلى الناس مباشرة برسالة إلهية ، وهو : أنه لو أرسل ملك لظهر فى صورة رجل من الناس . لأنه بسيط من جوهر واحد ، وهو جوهر الروح . وجوهر الروح لايشاهد ولا يحس مباشرة : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا » ضرورة إمكان

---

(1) هود ، ١٢ (٢) الفرقان ، ٢٢

رؤيته ومشاهدته « وللبسنا عليهم ما يلبسون » أى وعندئذ . . أى عند ظهوره فى صورة رجل سيختلط عليهم الأمر أكثر : وبذلك نكون قد تسببنا لهم فى حيرة فى أمر : هم بالفعل فى حيرة منه. وسيظل طلبهم فى تصورهم من غير استجابة ، مع ذلك : وسيظلون يرددون قولهم : نحن وددنا أن نرى ملكا فإذا بنا نرى إنسانا :

وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَحَاقَ بِٱلَّذِينَ سَخِرُوا۟ مِنْهُم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿١٠﴾ قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾ قُل لِّمَن مَّا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٢﴾

ولكى يطمئن المولى جل جلاله : رسوله الكريم على رسالته وعلى نجاحه فيها .. وبالتالى لكى يبعد عنه هواجس الضعف والتخاذل ، أمام اتهامات الماديين المشركين المكيين :. وضع أمامه ثلاث حقائق ، تعينه من الوجهة النفسية على الاستمرار فى الجهاد فى سبيل الله :

الحقيقة الأولى . أن استهزاء المعارضين لك .: إن هو إلا حلقة فى سلسلة استهزاءات المعارضين للرسل جميعاً من قبلك ، وأن المكيين المستهزئين سيحل بهم العقاب مثل ما حل بأسلافهم مع الرسل السابقين :: «ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم : ما كانوا به يستهزئون » أى فلحق بهم العقاب والجزاء بسبب استهزائهم وسخريتهم :

والأمران معاً ، أمر وجود معارضين لصاحب الدعوة الإصلاحية ، وأمر عقوبتهم على استهزائهم وسخريتهم منه : : أمران ضروريان : لأن دعوة الإصلاح هى . لانتزاع الفساد والعبث ، والقضاء على المفسدين العابثين وهؤلاء لا يستسلمون — ولا يدخلون كذلك فى الدعوة الإصلاحية — فى

يسر بل لا بد من أن يعارضوا ، ولا بد أيضاً من أن يطغوا في معارضتهم وعنادهم ، فيكون منهم الاستهزاء والسخرية . ثم إن العقاب الذى سينزل بهم أمر ضرورى كذلك ، لأن للفساد نهاية وللعبث نهاية . تحل بالمفسدين والعابثين قبل غيرهم ، وهى نهاية الزوال : وقد يكون زوالهم فى عنف وفى قسوة : وهذا هو عقابهم :

والحقيقة الثانية ، أن التاريخ — وحركته ، هى رصد لأحداث البشرية ، والأحداث الكبيرة. منها بوجه خاص التى تؤثر على تطور المجتمعات — خير شاهد على وجود الحقيقة السابقة : وهى : وجود معارضين لرسالة الإصلاح ووجود آثار تدل على عقابهم وجزائهم . « قل ، سيروا فى الأرض ، ثم انظروا ، كيف كان عاقبة المكذبين » : : فما عليك أيها الرسول إلا أن تدعوهم إلى مراجعة التاريخ وأحداثه : فإن هم فعلوا ذلك ، فسيرون عياناً عقاب المعارضين ، وهو عقاب مادى بفناء مجتمعهم وإحلال مجتمع آخر بديل عنه ، يسعى للإيمان بالله : والسلوك الحسن المستقيم . « وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء لعلهم يضرعون . ثم بدلنا مكان السيئة الحسنة حتى عفوا : وقالوا . قد مس أباءنا الضراء والسراء » أى أن النعمة التى تلحقهم ، والأذى الذى يصيبهم هو ابتلاء من الله فى مجال الإيمان به : وذلك أمر يتكرر فى المجتمعات . « فأخذناهم بغتة وهم لايشعرون »(١) :

الحقيقة الثالثة : تذكير الرسول عليه الصلاة والسلام : بأن الله جل جلاله يملك الوجود كله ، من سماويه وأرضيه : ومع ملكه للكون كله وقدرته على التغيير فيه : : فإنه رحيم بجميع عباده ، وتكاد تكون الرحمة فرضاً فرضه على نفسه ، مما يدل على تأكدها فى حياة البشر . وفقط من يريد أن يدخل فى نطاق رحمته : عليه أن يؤمن به وحده ، دون شريك له . ثم بأن : المولى وحده سيجمع الناس جميعاً — وفيهم مشركوا مكة — يوم

---

(١) الأعراف ، ٩٤ ، ٩٥

الجزاء ، وهو يوم القيامة والبعث ، وذلك : لكى ينال كل جزاءه على ما اعتقد ، وعمل والذين يخسرون فى هذا اليوم ولاينجون من العذاب هم الذين بقوا على عدم إيمانهم بالله وحده . . هم المشركون الماديون : « قل لمن ما فى السموات والأرض ؟ قل : لله (أى أن ما فى للسموات والأرض من كائنات وموجودات ملك الله وحده وواقع تحت تدبيره) كتب على نفسه الرحمة (أى والله ذو رحمة واسعة — ورحمته أمر يقينى متأكد — ولذا فقد ألزم بها نفسه) ليجمعنكم إلى يوم القيامة لاريب فيه (والله جلت قدرته سيبعث الناس جميعاً يوم القيامة ، وهو يوم الجزاء : وسيرى مشركوا مكة — مع الماديين الآخرين — فى كل عهد وعصر : أن يوم القيامة الذى ينكرونه ، كما ينكرون الله فى وحدته وعليائه : : هو حقيقة واقعة يرونها ، كما يرون أنفسهم) الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون (أى والذين يصيبهم غضب الله فى هذا اليوم هم أولئكم المشركون الماديون فى كل عهد : وقد فشلوا فى الحصول على رضائه سبحانه بسبب عدم إيمانهم به ، وتعنتهم فى معارضة رسول الله صلى الله عليه وسلم . أو فى معارضة رسالة أى رسول سبق) » :

* وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِي ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٣﴾

وكما أن لله أى مخلوق وكائن فى مكان ما : فى السموات والأرض : : كذلك له أى مخلوق وكائن ما : يستقر فى وقت الليل والنهار : « وله ما سكن فى الليل والنهار (أى أى كائن استقر فى الليل والنهار : وهذا وذاك: تعميم لما لله فى المكان والزمان معاً . ولا يخلو كائن ما : فى مكان ، أو فى زمان) وهو السميع العليم (ومع إحاطة خالقيته لما فى المكان والزمان : : فإنه لايغيب عن سمعه ولاعن علمه أى شيء : فهو المحيط كذلك بسمعه ، والمحيط بعلمه لما فى الوجود كله :

قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ
قُلْ إِنِّيٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾

وبعد تذكير الرسول بما لله من ملك محيط – بقياس المكان والزمان – وبما له من رحمة واسعة مؤكدة لاتعم إلا المؤمنين به وحده ، وبتأكيد يوم الجزاء وأنه بعيد عن الريب والشك فيه . : بعد ذلك : لم يكن هنا مفر – فى المنطق البشرى – من أن يكون الله وحده هو الولى والحميم . فاذا أضيف الى ما تقدم : أنه هو الخالق للسموات والأرض ، وأنه هو الذى يمنح ويعطى للكائنات فيها ، وليس هو بحاجة : لأن يأخذ أو يطعم . . إذا أضيف هذا : فانه يتعين : أن يكون هو الولى والحميم لكل فرد فى الوجود ولذا أمر سبحانه : رسوله – عليه الصلاة والسلام – أن يعلن هذه النتيجة الحتمية : فى قوله « قل : أغير الله أتخذ وليا ؟ فاطر السموات والأرض ، وهو يطعم ولا يطعمم (أى ليس هناك من يكون الولى والصديق سواه سبحانه ، فانه الخالق : : والمعطى : . والمستغنى) قل : إنى أمرت أن أكون أول من أسلم) وكذلك أمره أن يعلن هذه النتيجة الأخرى ، وهى أنه أول من أسلم من العرب ، طالما ليس هناك ولى ولاحميم سواه جلت قدوته) ولاتكونن من المشركين (وأكد لصاحب الرسالة عليه السلام : أنه لن يتحول الى الشرك يوما ما ، بعد أن آمن بالله وحده . لانه عندما آمن . . آمن محبة فى الله ، وقد اختاره الله لرسالته ، وكان أول المؤمنين فكيف تبقى لديه نزعة للتحول الى الشرك ، مهما قست ظروف الدعوة عليه ومهما حمل عليه المشركون واضطهدوه ومهما لاقى من العنت وسوء الاتهام والتجريح والمطاردة والتتبع : : أو مهما عرضوا عليه من مال : : وملك : : وجاه) .

﴿ قُلْ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ مَّن يُصْرَفْ عَنْهُ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمَهُۥ ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾ ﴾

وكنتيجة ليوم الجزاء وتأكيد وقوعه : . أمر الرسول عليه الصلاة والسلام بأن يعلن : خشيته — وكذا خشية كل مؤمن به — من عذاب هذا اليوم ، إن خالف الصراط المستقيم ، الذى خطته الإرادة الالهية فيما أوحى به إليه . والسعيد فى آخرته حقا : هو من اتقى عذاب هذا اليوم بعمله فى دنياه ، طبقا لما جاء من أوامر ونواهى : « قل إنى أخاف — إن عصيت ربى — عذاب يوم عظيم . من يصرف عنه يومئذ فقد رحمه ، وذلك الفوز المبين » :

﴿ وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٧﴾ وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٨﴾ ﴾

عاد القرآن الكريم ليوضح صفات الله ، التى تدعو الى انفراده بالألوهية وحده ، والتى تدعو بالتالى الى خطأ المشركين الماديين فى شركهم مع الله سبحانه : . موجوداً آخر : من صنم أو خلافه ، ثم يكشف عن مساوىء اعتقادهم فى القرآن وفى اليوم الآخر ، كأمارة من أمارات شركهم وضلالهم وقد لاتكون هذه الأمارات خاصة بهم وحدهم : فيذكر : قدرة الله فى الوجود كله — وفى دائرة الإنسان بالذات — وأنها قدرة كاملة ، لاتعارض فالله جل شأنه إن أصاب أحداً بسوء : بفقر ، أو بمرض ، أو بضعف وذلة . فانه لايكشف عنه السوء ، سواه . وإن أصابه بخير : بغنى ، أو بصحة ، أو بقوة وجاه ، فهو وحده القادر على إبقاء النعمة له مهما طال وقتها : « وإن يمسسك الله بضر ، فلا كاشف له إلا هو ، وان يمسسك بخير فهو على كل شىء قدير » : ولذا فهو الكامل القدرة وحده ، الذى تفوق

قدرته طاقات عباده : « وهو القاهر فوق عباده (أى المتفوق فى قدرته على عباده ، التى يخضع بها كل طاقة أخرى لأى موجود آخر سواه) : ولكن قدرته فى كمالها وعدم معارضتها تصحبها صفتان أخريان لذات المولى جل جلاله : صفة الحكمة . . وصفة الخبرة . وبذلك لاتستخدم قدرته فى الانتقام ، ولايصل أمرها الى طغيان . كما لا يتخبط بها خبط عشواء : « وهو الحكيم الخبير » . والمؤمن الذى يعبد الله سبحانه إن حاكى فى ذاته — عن طريق عبادته — صفة القوة التى لله . : فإنه يجب أن يحاكى فيها كذلك : صفتى الحكمة ، والخبرة اللتين له كذلك ، حتى يضمن : أن تكون قدرته فى الطريق الايجابى المثمر ، وليس فى الطريق السلبى الهدام والله سبحانه وتعالى بضم صفتى : الحكمة . : والخبرة : . الى قدرته المتفوقة — فى هذه الآية — فإنه يريد أن يرشد عباده المؤمنين :. أن تكون عبادتهم له . . قربى منه ، وعلى نحو مما له :

قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِىَ إِلَىَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ قُل لَّآ أَشْهَدُ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ وَإِنَّنِى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿١٩﴾

وعاد القرآن — فى سورة الأنعام — إلى محاولة المشركين المكيين ، على لسان رسول الله صلى الله عليه وسلم : فى أمر شركهم ، وفى ادعاءاتهم الأخرى : سواء فيما يتعلق بالقرآن : . أو بنظرتهم إلى الحياة . ووضع مقدمة قبل الدخول فى هذا الحوار . وهى مقدمة : الحكم والشاهد : بين الطرفين . فقال : « قل : أى شيء أكبر شهادة (أى أى شيء أكبر دلالة وأهمية فى الوجود ؟ إنه لاشك : الله سبحانه ، فأنتم لا تنكرونه ، ولكن تشركون معه موجودات أخرى فى الألوهية واستحقاق العبادة) قل : الله شهيد بينى وبينكم (فى محاجتى إياكم ، وفى تمسككم بالشرك والضلال)

وأوحى إلى هذا القرآن لانذركم به ، ومن بلغ (وبعد الاحتكام الى الله فى هذه المحاورة :: ابتدأت بتقرير عام على لسان الرسول عليه السلام ، وهو تقرير رسالة القرآن : وهى رسالة الإنذار بالنسبة لمشركى مكة ، ومن على شاكلتهم ممن يبلغ إليه ، أو يبلغه : وفى تعميم الإنذار للعرب :: ولغيرهم من المعارضين والكافرين :: كما يفيد هذا التقرير : أن رسالة القرآن والرسول عليه السلام ليست قاصرة على العرب ، كما يدعى بعض المشككين فى القرآن وفى رسالته صلى الله عليه وسلم) أئنكم لتشهدون أن مع الله . . آلهة أخرى ؟ (ثم يتبع هذا التقرير بتحديد رسالة القرآن . : الحوار مع المشركين بسؤالهم : عما إذا كانوا يستطيعون أن يتحملوا تبعة الشرك والاعتراف بآلهة أخرى معه ، سبحانه . وهو سؤال يقصد منه النفى والإنكار. أى يقصد منه: أنهم لايستطيعون تحمل تبعة ذلك . . إلى يوم البعث . وإنما شركهم جاء نتيجة لتمسكهم بمصالح مادية من ورائه . فقد كان كهانهم يدعون على الله زوراً : أنه حرم من الحيوان والأنعام : بعضاً معيناً منها ، كى يتسلموا هذا البعض المحرم لحسابهم ومصلحتهم . وبذلك يفيدون من بقائهم على الشرك وعبادة الأصنام) قل : لا أشهد (أى قل أيها الرسول — صلوات الله عليك ، ومن آمن معك — إنى لا أقر بربوبية لاحد سوى الله جل جلاله) قل : إنما هو إله واحد ، وإننى برىء مما تشركون (وقل : كذلك بالإضافة الى إنكارك ربوبية أحد سواه : إنه سبحانه فى الألوهية واحد لاشريك له ، وإنى بعيد كل البعد ، وأنزه نفسى عن الشرك الذى تتخذونه عقيدة لكم « وهنا يؤكد الرسول عليه السلام وحدة الألوهية ثلاث مرات : « الأولى : عندما يشهد بأنه لايعترف بربوبية أحد سواه . . والثانية : عندما يعلن : أن المستحق للألوهية هو إله واحد ، هو الله . . والثالثة : عندما يتبرأ من عقيدة المكيين فى الشرك . وتأكيد وحدة الألوهية هو الأصل الذى تقوم عليه كل رسالة سماوية ، والذى جاء به كل رسول أرسل للناس : وعن هذا الأصل تتفرع فروع الدين فى العبادة والسلوك) » :

﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمُ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٢٠) وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ (٢١) ﴾

وهذا القرآن الذى ينذرون به الآن – ومن بلغ – والذى ينكرونه ويعارضونه . . يعرفه أهل الكتاب معرفة جيدة ، كما يعرفون أبناءهم ؛ لأنه مصدق لما لديهم من كتاب : « **والذى أوحينا اليك من الكتاب هو الحق مصدقاً لما بين يديه** »(1) . . فمعارضة المشركين إياه معارضة لاتقوم على حجة ، إلا إذا كان التشبث بالعرف حجة ، وقلما يكون : « **الذين آتيناهم الكتاب (وهم اليهود والنصارى) يعرفونه كما يعرفون أبناءهم ، الذين خسروا أنفسهم فهم لايؤمنون (فمن لم يؤمن به : من أهل الكتاب والمشركين ، يكون قد خسر نفسه . إذ الذين يخسرون هم وحدهم الذين لايؤمنون بالله وحده ، ولابرسالته التى تدعو الى وحدته فى الألوهية))** .

والذين يخسرون أنفسهم فلا يؤمنون بالله وحده – سواء من أهل الكتاب . . أو المشركين – هم فى الوقت نفسه أكثر الناس ظلماً لأنفسهم ولغيرهم . لأنهم ما خسروا أنفسهم . . ولا أنكروا الإيمان بالله ، إلا بسبب افترائهم الكذب عليه : فينسبون إليه ما يستحيل . . أو ما لايليق : أن ينسب إليه : فيجعل المشركون : الملائكة بنات له ، ويضيفون إليه أنه حرم البحائر . . والسوائم ، من الأنعام . . ليجعلوها خالصة لهم ، وينظرون إلى الأصنام على أنها شفعاء لهم عند الله . . أو إلا بسبب تكذيبهم لآيات الله – كما اشتمل عليها القرآن – فيصفونها : بالسحر والخداع ، كما يصنع المكيون ، أو يجعلونها : افتراء على الله اذا خالفت بعض ما كان لديهم فى كتابهم على نحو ما يحكى كتاب الله : « **وإذا بدلنا آية مكان اية** –

---

(1) فاطر ، ٣١

والله أعلم بما ينزل ــ قالوا : « إنما أنت مفتر ، بل أكثرهم لا يعلمون »[1]
وسواء أكان عدم إيمانهم هو السبب فى ظلمهم لأنفسهم . . والسبب أيضاً فى افترائهم على الله الكذب . . أو أن افتراء بعضهم على الله الكذب ، وتكذيب البعض الآخر لآياته . . هو السبب فى عدم إيمانهم وظلمهم لأنفسهم : : سواء أهــذا أو ذاك . : فانه لايفلح الظالمون ، ولاينجون بأنفسهم من عقاب الدنيا أو عذاب الآخرة : « ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً ، أو كذب بآياته ، إنه لايفلح الظالمون » .

وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ أَيْنَ شُرَكَآؤُكُمُ ٱلَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ لَمْ تَكُن فِتْنَتُهُمْ إِلَّآ أَن قَالُواْ وَٱللَّهِ رَبِّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ ﴿٢٣﴾ ٱنظُرْ كَيْفَ كَذَبُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

وسوف يرون أنفسهم بأنفسهم : يوم أن يبعثوا ، ويساقوا الى الجزاء جميعاً : : يوم ذاك ، وهم لم يلحقهم الجزاء بعد سيسألون عن شركهم : : وعن شركائهم . . سيقال لهم : أين يوجد شركاؤهم الآن . : أين أثر شركائكم فى تخليصكم من عذاب يوم الجزاء : « ويوم نحشرهم جميعاً ، ثم نقول للذين أشركوا : أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون (أى تدعون أنهم شركاء لله ، سبحانه) ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا : والله ربنا ما كنا مشركين (أى لم يكن مجأهم المزيف الذى يلجأون إليه : هرباً وخجلاً إلا أن ينكروا شركهم بالله ، ويقسموا عليه : وذلك تبرير المكشوف والمهتز فيما يقول) . أنظر : كيف كذبوا على أنفسهم ، وضل عنهم ماكانوا يفترون (والآن ــ فى يوم الجزاء ــ أنظر أيها الرسول : نتيجة محاجتهم والحوار معهم ، فى شأن وحدة الألوهية : كيف كذبوا على : أنفسهم فأقسموا . أنهم لم يكونوا مشركين لحظة واحــدة فى حياتهم ، وكيف

(١) النحل ، ١٠١

انكشف أمرهم فى صلاتهم بشركائهم ، إذ لم يجدوا أثراً لهم فى هذا اليوم ، وقد عبدوهم وأشركوهم كذباً وافتراء مع الله فى النفع والضر) » :

وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوكَ يُجَٰدِلُونَكَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٥﴾ وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْـَٔوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى ٱلنَّارِ فَقَالُواْ يَٰلَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٧﴾ بَلْ بَدَا لَهُم مَّا كَانُواْ يُخْفُونَ مِن قَبْلُ وَلَوْ رُدُّواْ لَعَادُواْ لِمَا نُهُواْ عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٢٨﴾

وتمهد السورة من جديد لتهمة أخرى توجه الى القرآن الكريم من تهم الماديين — وقد قلدها مشركوا مكة منهم — وهى وصفه بأنه أسطورة من أساطير الأولين ، وباطل من أباطيلهم . . فتذكر : أن نفراً من هؤلاء المشركين الماديين ، عندما كان يحضر ليستمع الى الرسول عليه السلام وهو يقرأ القرآن كان يسمع وهو منصرف بعقله ، وإدراك سمعه عن أن يعى ويتفقه مايقوله عليه السلام : « ومنهم من يستمع إليك وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفى آذانهم وقراً) أى وضعنا على قلوبهم ومكان التفكير منهم . أغطية تحول دون وعى ما يتلى عليهم ، وأصبنا آذانهم بصمم كى لايدركوا ما يسمعون — وأغطية القلوب والفكر ، وصمم الآذان . . كناية عن الانصراف وعدم الرغبة فى فهم مايقرؤه الرسول عليه السلام ، رغم استماعهم إليه — أى أن هؤلاء الماديين المشركين فى مكة لم يكونوا جادين فى الأخذ بهداية القرآن ، عندما كانوا يحضرون مجلس الرسول عليه السلام وهو يتلو ما أوحى إليه . ولذا لاينفعهم حضورهم واستماعهم إليه . وإنما كانوا بالأحرى ساخرين . وقصدوا من حضورهم فقط : أن يدخلوا فى محاورة ليلقوا بتهمهم ، دون أن يقفوا على ما فى الجانب الآخر — وهو

القرآن – من موضوعية فى هـداية الإنسان) وإن يروا كل آية لايؤمنوا بها (ولذا لم يكن لديهم استعداد . لأن يتقبلوا من الرسول عليه السلام شيئاً : فلا القرآن كله كأمارة على رسالته ولا أية آية منه تدل على بصيرة وهدى . . كانت عندهم فى موضع القبول ومراجعة النفس للإيمان) حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين (وإصرارهم على الرفض من أول الأمر حملهم عند المحاورة على أن يلقوا بتهمة : الأباطيل والترهات ، فى وجه القرآن ؛ ولو أن اتهامهم القرآن بأنه : أساطير ، كان نتيجة بحث فيه ، لقيل آنئذ : ربما أخطأوا فى منهج البحث – كما يفعل الماديون فى حاضرهم – وهذا يخفف عنهم بعض الشيء من خطر اتهامهم . ولكنهم جاءوا الى القرآن وفى أنفسهم كراهية له ولرسوله عليه السلام خوفاً على زعامتهم ، وضياع استغلالهم الدينى لعامة التابعين لوثنيتهم . . جاءوا إليه وقد عمدوا الى تجريحه ومعارضته ، وإلى التشنيع عليه فى أى صورة من صور التشنيع . . جاءوا إليه للمغالطة فيه ، وإعلان الصوت النابى فى شأنه) . وهم ينهون عنه ، وينأون عنه (أى ولذا : كانوا يصدون الناس دونه ، كما كانوا يبتعدون عنه فلا يعرفون شيئاً مما جاء فيه ولا يريدون أن يعرفوا عنه أى أمر خاص به) وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون (ولكن هذا الموقف منهم إزاء القرآن – وهو موقف المعارض المنكر . . موقف الذى لايطيق أن يسمع ، ولايود أن يفقه أو يعرف منه شيئاً – له نتيجة واحدة . . وهى نتيجة سيئة : لاتلحق القرآن ، وإنما تلحقهم أنفسهم . لأنهم بهذا الموقف سيهدمون أنفسهم بأنفسهم . لأن الحق سيتجلى رويداً رويداً . . والشمس ستشرق حتى تبدد ظلام الليل كله . وعندئذ ينكشف أمرهم أمام أنفسهم وأمام من اتبعوهم يوماً ما . وقد جاء فتح مكة مبدداً لظلام الشرك كله فى مكة . فاذا اشتد ظلام المادية فى عصر ما بعد ذلك ، فسيكون هناك فتح مكة من جديد . لان فتح مكة ليس حادثاً فريداً فى تاريخ الدعوة إلى الإيمان بالله وحده وإنما هو ظاهرة اجتماعية تلازم قوة الإيمان بالله ، وتلازم قوة الترابط والتماسك على أساس من رسالة القرآن ، فى مواجهة عدوان المادية السافر

وطغيانها فى أى عهد ، وفى أى جيل) : ولو ترى إذا وقفوا على النار فقالوا : ياليتنا نرد ، ولانكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين (وليس كشف أمرهم وإهلاك أنفسهم بأنفسهم ، هو فقط : ما يحل بهم ويصيبهم. وإنما بجانب هذا العقاب فى الدنيا : هناك عقاب آخر لهم فى الآخرة .. ولو تصورت أيها الرسول — عليك صلوات الله — وضعهم وهم واقفون على النار ليزج بهم فيها : . لأحسست ندمهم على موقفهم فى الدنيا ، وأمنيتهم فى أن يعودوا مرة أخرى من جديد إلى حياتهم الأولى ، وعندئذ يؤمنون بالله ولا يكونون من المكذبين بآيات ربهم أبداً) بل بدا لهم ماكانوا يخفون من قبل (وسبب ندمهم على مامضى وأمنيتهم فى أن يعودوا مرة أخرى ليكونوا على وضع آخر ، هو : رؤيتهم — رؤية العين — النار التى سيزجون فيها من جانب ، ورؤيتهم رؤية العين ، كذلك : ما سجل فى صحائفهم من القبائح ، والمساوىء ، والاستغلال ، والحرص على الدنيا فى سبيل الصد عن دين الله ، والعبث والفساد فى سبيل الاستمتاع بمتع مادية زائلة) ولو ردوا .. لعادوا : لما نهوا عنه ، وإنهم لكاذبون) ولكن مايبدو منهم : من ندم ، ومن تمن ، ومن وعد بالإيمان ، لو عادوا الى الحياة الدنيوية مرة أخرى .. لايعبر عن حقيقة أنفسهم ، إذ أن نفوسهم فى حقيقة أمرها : جبلت على الضلال والاستغلال ، ولذا : لو عادت الى الدنيا : لعادت إلى المنكرات وما نهيت عنه ، فهى نفوس كاذبة : تكذب على نفسها ذاتها .. وتكذب على غيرها . ولذا لا تؤمل أيها الرسول — عليك صلوات الله — فى أصحاب الشرك والمادية ، واحذرهم : أن يفتنوك ، ويضلوك ، مهما وعدوا ومهما أعلنوا من وئام . والمؤمنون بالله وبرسوله محمد علية الصلاة والسلام مطالبون — على النحو من الرسول — أن لايثقوا فى أصحاب المادية : لا فى مودتهم .. ولا فى وعدهم .. ولا فى قولهم ، فقلوبهم مبيتة على الشر ، ونفوسهم منطوية على العدوان ، وكفرهم بالله لاحد له)) :

وَقَالُوٓاْ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُواْ عَلَىٰ رَبِّهِمْ ۚ قَالَ أَلَيْسَ هَـٰذَا بِٱلْحَقِّ ۚ قَالُواْ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٠﴾ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱللَّهِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُواْ يَـٰحَسْرَتَنَا عَلَىٰ مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَآءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾ وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَآ إِلَّا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۖ وَلَلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ يَتَّقُونَ ۗ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٣٢﴾

وهذه تهمة أخرى يلقى بها الماديون فى وجه الدين ، وقد ألقى بها الماديون المشركون بمكة على عهد نزول القرآن فى مواجهة الإسلام . وهى تهمة : أن الدين يدعو إلى الإيمان بالآخرة ، وإلى الحياة الأخروية مع أنه ليست هناك حياة سوى هذه الحياة الدنيا : « وقالوا : إن هى إلا حياتنا الدنيا ، وما نحن بمبعوثين (وإنكار الماديين — فى أى عهد .. فى عهد الرسول .. أو عهد ما قبله .. أو عهد ما بعده — للحياة الأخروية : يقوم على الاستغراق فى المادية .. يقوم على الإيمان بأن الموجود هو المادى المحسوس.. وأن ما ليس بمادى ولا محسوس : ليس موجوداً . وهو منطق الطفولة البشرية.. أو منطق الأعمى الذى يتحسس بلمس يده فقط ، دون أن تكون له بصيرة تهديه إلى سواء السبيل .. فالطفل لا يدرك مفاهيم الأشياء ، لأنها أمور عامة وغير مشاهدة له . وإنما يدرك ذوات الأشياء المحسوسة التى يمكن أن يوجه بالاشاره إليها . وإدراك الطفل هو إدراك فيه قصور ، لأنه يعيش منذ ولادته فى دائرة الأنانية وفى نطاق ما ينميه بدنياً ، فحسب . والمادى المنكر للحياة الروحية ، والحياة الأخروية الغيبية .. هو أنانى يحفل بذاته فقط . ولذا : لو ادعى : أنه يؤمن بقيم عليا فى الحياة الإنسانية فهو كاذب على نفسه . لأن المؤمن بقيم عليا ، يؤمن بمن يوجد معه فى المجتمع . وليس ذلك شأن الأنانى المادى : إذ هو يعيش لنفسه وحدها ، ويسلك فى سبيل أنانيته :

طريق النفاق : . وطريق المنفعية .. وطريق الانهازية :: وطريق اللاأخلاقية)
« ولو ترى إذ وقفوا على ربهم قال أليس هذا بالحق ؟ قالوا : بلى وربنا !
(أى لو تصورتهم — أيها الرسول ، صلوات الله عليك — عندما يوقفهم
الله على أمره يوم البعث والجزاء ، الذى أنكروه فى دنياهم وشددوا فى
إنكاره ، وبمكنهم من أن يشاهدوا هذا اليوم : حقيقة واقعة ، لم يكن لهم
من جواب سوى : نعم ، عندما يسألهم المولى جل جلاله عن حقيقة هذا
اليوم ، وهل هو موجود مشاهد الآن ، أم ظل فى عالم الخيال والوهم ، كما
كانوا يدعون ؟) قال : فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون (ولكن لم يغنهم
شيئاً : جوابهم : بنعم ، إقراراً بوجود اليوم الآخر : عن تنفيذ عقابهم
فى الآخرة ، وهو عقاب الكافرين . وليس لهم من عقاب سوى عذاب
النار ، وذلك بسبب كفرهم) قد خسر الذين كذبوا بلقاء الله ، حتى إذا
جاءتهم الساعة بغتة قالوا (تعبيراً عن ندمهم) : يا حسرتنا على ما فرطنا
فيها (أى فى الحياة الدنيا . وما فرطوا فيه هو إيمانهم بالله وحده ، واتباع
هدايته) وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ، ألا ! : ساء ما يزرون
(إن ما خسروه فى الدنيا بسبب تكذيبهم بالبعث واليوم الآخر ، وبسبب
ادعائهم : إن هى إلا حياتنا الدنيا .. لايساويه اطلاقاً : وضعهم يوم الجزاء
وأخطاؤهم وجرائمهم لاتنفك تلاحقهم وتتبعهم ، أينما ساروا ، فكأنهم
يحملونها على ظهورهم عارية مكشوفة ، وليست مما يشرف الإنسان أن يحمله :
إنها جرائم الكفر ، والعبث ، والفساد ، واللا أخلاقية :: إنها جرائم المادية :
فى كذبها وبهتانها : : ونفاقها :. وصدها عن سبيل الله) وما الحياة الدنيا إلا
لعب ولهو (وما قيموا به الدنيا من أنه شىء يحرص عليه الإنسان ، ويسعى
جهده إلى متعه ، ويستغرق فى محيطه ، فينكر كل شىء إلا وجود نفسه :
ينكر الله : واليوم الآخر :: ما قيموا به الدنيا على هذا النحو : هو تقييم
خاطىء . فالحياة الدنيا فى حقيقة أمرها ، لعب .. ولهو : يلهو بها الإنسان::
وتلعب هى بالإنسان : مفاتنها ، ومتعها ، وملذاتها :.أمور وقتية، لاتساوى:
أن يضحى الإنسان بكرامته فى سبيلها ، وأن يحتقر عقله ومشيئته من أجل
الحصول عليها ، وأن يكفر بالله وهدايته بسببها) وللدار الآخرة خير للذين

يتقون (ولكن الدار الآخرة بما فيها من استقرار .: وبما فيها من البعد عن العبث والفساد : وبما فيها من فناء الأحقاد ، وبما فيها من صفاء النفوس ، وبما فيها من القرب من الله .: هى خير بكثير من الحياةالدنيا.ولكن لايصيب حياة الآخرة : إلا من آمن بالله ، واتقاه .. فسار على هدايته فى دنياه ، وأطاعه فيما أمر ، وفيما نهى ، حفظاً لكرامته البشرية ، ووقاية من الوقوع فى العبث والفساد ، وهو عبث الهوى : وفساد النفس الأمارة بالسوء) أفلا تعقلون ؟ (أيها المشركون الماديون : تحصلون على متعة وقتية ينتهى أجلها بعد حين فى دنياكم ، وتضحون بحياة فى آخرتكم : كلها استقرار ، وكلها صفاء ، ومتعها متع دائمة تختلف اختلافاً كبيراً : فى نوعها وفى كمها . . عما فى الدنيا من متع ؟ : إن الذى يؤثر الأمر المؤقت على الدائم ، ويؤثر الكم على النوع ، ويؤثر أحقاد النفوس فى علاقة بعضها على بعض ، على صفائها ومحبتها فى هذه العلاقات .: إن الذى يصنع ذلك : له منطق معكوس، ليس هو منطق العقلاء . وهكذا : المادية التى تجر إلى إنكار الله ، وإنكارهم يوم البعث والجزاء ، تغلق على الإنسان منافذ عقله وحكمته ، وتفتح عليه أبواب الهوى والشهوة لنفسه .: وبطنه : . وفرجه . وهيهات يجد المادى الكفاية فيما يمتع به نفسه ، وشهوته ، وفرجه .. وهيهات يقف عند حد معين فيما يستمتع به : « **واتل عليهم نبأ الذى آتيناه آياتنا فانسلخ منها ، فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين .ولو شئنا لرفعناه بها ، ولكنه أخلد إلى الأرض ، واتبع هواه ، فمثله : كمثل الكلب : إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث، ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا ، فاقصص القصص لعلهم يتفكرون** »)(١) .

★★

---

(١) الأعراف ، ١٧٦

قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ ۖ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾

ونظراً لخطورة ما يتهم به الماديون المشركون : كتاب الله..بالأساطير ، وما ينكرونه على دين الله من الدعوة إلى الإيمان بيوم البعث والجزاء ، ووقوفهم عند حد الايمان بالدنيا وحدها ، وفى شعارهم القائل : إن هى إلا حياتنا الدنيا .. ونظراً لما يجوز أن يكون لهذا ولذلك أثر على نفسية الرسول عليه السلام ، وهو بشر .. شاء الله سبحانه : أن يسرى عن نفسه عليه السلام ، وأن يدفع : ما عله : أن يكون قد خالجها من حزن وأسى ، ضاق بـــه صدره ، فإنهم أقاربه ومع ذلك هم أشد الكافرين قسوة فى رد دعوته فقال تعالى : « قد نعلم : إنه ليحزنك الذى يقولون (من اتهامهم كتاب الله بالأساطير والأباطيل ، ومن إنكارهم لليوم الآخر ، وأن هذا سيسبب لك ضيقاً وحرجاً نفسياً . لأنك كنت – عليك السلام – تتوقع منهم المؤازرة ، وليست المؤامرة ، والترحيب بدعوتك وليست المكايد والدسائس فى سبيلها . ولكنها المادية لاترحم : لاتعرف قرابة ، ولا نسباً، ولا تعرف أخوة ولا مودة . إنما تعرف شيئاً واحداً فقط ، هو : الأنانية، والوجود المادى وحده . والمعانى الإنسانية توجد فى المشاعر والأحاسيس ، ولكنها لاتوجد على الأرض مشاهدة عياناً بين الناس) فإنهم لايكذبونك ، ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون « فلا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون » . لأنهم لم يصيبوك شخصياً باتهامهم وإنكارهم . إنما يتجهون بذلك إلى آيات الله فينكرونها : وهنا لاينبغى أن يتسرب حزن ولا ضيق إلى نفسك ، كما لاينبغى أن لايتسرب إليها يأس أوقنوط يتصل بمستقبل دعوتك :

★ ★

﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِي الْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾ ﴾

وإن ما واجهك به هؤلاء المشركون الماديون .. من اتهام لكتاب الله ، ومن إنكار ليوم البعث .. واجه به نظراؤهم الماديون فيما سبق .. رسلا من قبلك . فتكذيب الماديين لك أمر منتظر .. واتهامهم لك والتشنيع فيما يتهمون به أمر متوقع : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا (وإذا كان الاتهام والإنكار لدين الله أمراً مترقباً في كل وقت من الماديين .. فالموقف الذى يتخذ فى مواجهة ذلك ، هو الصبر ، والتحمل .. الصبر على الكذب والإنكار من جانب الماديين . . والتحمل على مايصدر منهم ، من : إيذاء نفسى ، ومادى . فهؤلاء الماديون لايعرفون منطقاً يحاجون به : إنما يعرفون : تهماً يلقونها ، وانكاراً لما يخالف هواهم : وتهمهم معروفة ومحدودة ، ونهاية ما يتهمون به معروف ومحدود. وعاقبته الصبر والتحمل ، هو : نصر الله لدينه . فالطفولة فى التفكير — وهى المادية فى منطقها — إن طال زمنها حطمت نفسها . ولا محالة فى يوم من الأيام أن يحل محلها : رشد الإنسانية ، الذى يمثله هداية الله فى كتابه « ولا مبدل لكلمات الله » . ولن تفنى الروحية .. ولن يضيع دين الله إلى يوم البعث ، مهما اشتدت العواصف الهوجاء للمادية) ولا مبدل لكلمات الله (أى ليس هناك تغيير لما يعد به الله . وقد وعد بنصر المؤمنين . وهم أولئكم الذين يجاهدون فى سبيله : بالنفس .. والمال .. والولد . وليسوا هم أولئكم الذين يكتفون بإعلان إسلامهم أو بانتسابهم إلى الإسلام . وقد وعدهم إذ يقول : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين » .. لامبدل لكلمات الله لأنه هو القاهر فوق عباده .. لأنه العزيز الذى لايقهر .. لأنه الحكيم فى تدبيره ، ويعلم السر والعلن على السواء) ولقد جاءك من نبأ المرسلين (أى وقد أوحى إليك فى القرآن الكريم — أيها الرسول صلوات الله عليك — أخبار الرسل

السابقين وما وقع لاقوامهم عندما اشتدت معارضتهم لرسالة الله التى جاء بها الرسول اليهم : **« وما أرسلنا فى قرية من نبى إلا أخذنا أهلها بالبأساء والضراء ، لعلهم يضرعون. ثم بدلنا مكان السيئة. الحسنة حتى عفوا ، وقالوا قد مس أباءنا الضراء والسراء فاخذناهم بغتة وهم لا يشعرون »**(١) :.

وهكذا — كقانون للحياة الإنسانية يستلزم نتائجه الحتمية — أولا : معارضة الرسول وصاحب الدعوة الإصلاحية فى المجتمع البشرى. : أمر متوقع ومفروغ منه :. من جانب الماديين الذين ينكرون الله واليوم الآخر ، وهم شر البشرية.. وقد حدد القرآن موقف المؤمنين منهم فى قوله : **« قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ، ولا يحرمون ماحرم الله ورسوله »**(٢).

وثانياً : أن الصبر والتحمل سبيل النصر والتأييد من قبل الله والمؤمنين الصابرين فى جهادهم وفى دعوتهم .: وإن نصر الله آت لاريب فيه. والتاريخ خير شاهد على الأمرين معاً) » .

وَإِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكَ إِعْرَاضُهُمْ فَإِنِ ٱسْتَطَعْتَ أَن تَبْتَغِىَ نَفَقًا فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ سُلَّمًا فِى ٱلسَّمَآءِ فَتَأْتِيَهُم بِـَٔايَةٍ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰ ۚ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٥﴾ *

ما قدم لك الآن — أيها الرسول صلوات الله عليك — فى مواجهة المعارضين الماديين من نصح : من الصبر والتحمل .. ومن وعد الله بالنصر لك :. هو الطريق السليم لإنجاح دعوتك . أما الاستماتة فى محاولة إقناعهم ، والحرصُ على هدايتهم وإيمانهم .. فغير صائب وغير حكيم ، ولايصدر إلا من صاحب هوى وغرض :. لايصدر إلا من جاهل : لأن مادية هؤلاء

---

(١) الأعراف ، ٩٤ / ٩٥ (٢) التوبة ، ٢٩

المعارضين قد أغلقت عليهم نوافذ الإدراك ، من : سمع ..وبصر.. وقلب :
« وان كان كبر عليك إعراضهم (أى إن صعب على نفسك تحديهم لك ،
وهم أقرباء تحرص على إيمانهم) فإن استطعت أن تبتغى نفقاً فى الأرض ،
أو سلماً فى السماء فتأتيهم بآية (أى مهما سلكت من طريق ممكن أو غير
ممكن فى باطن الأرض .. أو فى علياء السماء : لتأتى لهم بأمارة تقنعهم .. :
فإنهم لايقتنعون ، لأنهم أصروا على المعارضة من أول الأمر : خشية أن
يفوت عليهم الإيمان بالله وحده .. مصالح خاصة بهم ، مع من يتبعونهم
فى وثنيتهم المادية) ولو شاء الله لجمعهم على الهدى (على أن هناك أمر آخر :
وراء حرصك على هدايتهم .. ووراء حرصهم على معارضتك وتحديك .. :
وهو : أن إرادة الله لو شاءت جمعهم مع غيرهم على هداية الله ..لنفذت ،
وأصبحوا جميعاً مؤمنين به وحده . ولكن شاء الله : أن يكون بين الناس :
مؤمن ، وكافر .. وإنسانى ، ومادى .. ومستقيم ، ومنحرف .. ومهتد ،
وضال ، كما شاء الله أن يكون بين الناس أيضاً : الطفل . . والمراهق . . :
والرشيد .. شاء الله ذلك : حتى يكون هناك رائد .. وتابع .. حتى يكون
هناك تضاد فى الحياة . إذ التضاد هو سر استمرار الحياة ، كما كانت
الذكورة .. والأنوثة سبب وجود الإنسان نفسه . والكفر بالنسبة للإيمان هو
العامل على استمراره . والمادية بالنسبة للروحية هى الباعث على التمسك بها .
والتضاد فى الوجود عامة هو الدليل على وحدانية الله) فلا تكونن من الجاهلين
(أى لاتنزل إلى مستوى هؤلاء المعارضين الماديين ، ولا تجاريهم فيما يطلبون .
فقد رفعك الله إلى مستوى الإنسانية . ومن أماراتها : التعقل ، والتبصر ،
والصبر والتحمل فى سبيل القيم العليا .. ومن أجل هداية البشرية) » .

﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ ٱلَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَٱلْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ ٱللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ (٣٦)

وأعلم أن الذين يستجيبون لدعوتك هم صنف واحد من الناس .. هم
أولئكم الذين يسمعون إليك فى تمعن ، وفى حرية من الفكر والعقل ، وفى
إقبال على السماع . وليس أولئكم الأقرباء على الإطلاق ، ولا أولئكم الماديين

الذين جعلت أكنة على قلوبهم وفى سمعهم وقر ، بسبب طغيان المادية عليهم : « إنما يستجيب الذين يسمعون (أى هؤلاء وحدهم هم الذين يتقبلون دعوتك) والموتى يبعثهم الله ، ثم إليه يرجعون (وهذه قضيه ثانية — بعد القضية السابقة — وهى أن البعث أمر محقق لاشك فيه رغم إنكاره من الماديين ، وأن اللقاء مع الله فى اليوم الآخر أيضاً : أمر لاشك فيه، رغم كفرهم به .. فهاتان القضيتان : تقبل الدعوة من الراغب فى السماع إليها .. والبعث واللقاء مع الله فى الآخرة .. ضروريتان فى الاستناد إليهما والركون لهما : لمن يريد أن ينجح فى دعوته الإصلاحية ، وهى الدعوة إلى الإيمان بالله وحده وإلى دينه : الصراط السوى) » .

﴿وَقَالُوا۟ لَوْلَا نُزِّلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يُنَزِّلَ ءَايَةً وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٧﴾﴾

وهذا تحد آخر — أو اتهام آخر بعدم صلاحية القرآن لأن يكون الدليل على رسالة الله لرسوله محمد صلى الله عليه وسلم يثيره المعارضون الماديون من المكيين — وهو طلبهم من الرسول عليه السلام أن يتوسل إلى ربه فى أن ينزل عليه آية أخرى مادية — إن كان صادقاً فيما يدعيه — يشاهدونها كما يشاهدون أنفسهم ووجودهم المادى الذى يحيط بهم : « وقالوا : لولا نزل عليه آية من ربه ؟ (أى هلا أنزل عليه آية أخرى ومعجزة أخرى غير القرآن يمكننا أن نحسها كما نحس أنفسنا ! . وهم بطلبهم الدليل المادى على رسالته عليه السلام .. إنما يحاولون أن ينالوا من القرآن ، كما يظنون أنهم يعجزونه عليه السلام أمام أعوانهم . ورفضهم للقرآن كمعجزة لأنه موضوعى . وقد أصاب بموضوعيته منافع هؤلاء الماديين ، إذ قبح شأنهم ، وألحق العبث والفساد باتجاههم فى الحياة) قل : إن الله قادر على أن ينزل آية ، ولكن أكثرهم لايعلمون (أى قل لهم — أيها الرسول صلوات الله عليك — إن حدوث دليل مادى مشاهد على رسالتى . هو فى استطاعة الله وفى قدرته .

وإنمـا آثرنى بالقرآن • لأنه الصورة الأخيرة لرسالة الله إلى الإنسان ، والصورة الكاملة التى بعدت عن التحريف والزيف : « **اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الاسلام ديناً** » (١) : . ولكن أكثر الناس لايعلمون هذه الحقيقة ، وهى • أن إيثار الله رسوله — عليه الصلاة والسلام بالقرآن كمعجزة ، دون آية مادية أخرى على رسالته إنما هو لحكمة ، وليس عن عجز فى قدرته ، تعالى جل شأنه • وهذه الحكمة • هى حاجة البشرية — حتى يوم البعث — إلى كتاب هداية • لايأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، ولم يفرط الله فيه من شىء يتعلق بالهداية) » •

﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّآ أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ (٣٨) ﴾

والدليل على قدرة الله واستطاعته على • أن الله يأتى بدليل مادى يدل على رسالة الرسول عليه السلام ، غدا القرآن ، ولكن لم يأت به لحكمة • • هو أنه — جل جلاله — خلق الموجودات التى تتحرك على الأرض وتدب عليها ، والتى تعيش فى البحار والأنهـار وتختفى فى مياهها ، والتى تحلق وتطير فى الهواء .. على نمط ما خلق عليه الانسان فى جماعته : فهناك فى عالم الحيوان .. وعالم الطير : روابط تربط بين الأفراد فيه ، كتلك التى تربط بين أفراد الإنسان فى جماعة الإنسان . وهناك قوانين تحكم هذه العوالم ، كما تحكم عالم الإنسان . وهذا منتهى القدرة . أفلا يستطيع بعد ذلك : أن يأتى بمعجزة مادية تدل على رسالة المصطفى عليه السلام : « وما من دابـة فى الأرض . . (والدابة هى كل ما يتحرك) ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمـم أمثالكم (أى فى الترابط والعلاقات المتنوعة) ما فرطنا فى الكتاب من شىء (وهذا دليل آخر على استطاعته سبحانه على أن يأتى بالدليل المتحدى به . وهو أن القرآن — وهو كتاب الهداية البشرية — قد اشتمل على كل

(١) المائدة ، ٣

مبادىء الروحية ، وهى القيم العليا التى تصور الصراط المستقيم :: اشتمل على قوانين المجتمع البشرى فى عدله وإحسانه . . واشتمل على قواعد السلوك الأخلاقى للفرد فى هذا المجتمع :: واشتمل على وسائل قوة العلاقات والترابط بين الأفراد :: كما اشتمل على ما يبصر الإنسانية فى مصيرها ، وعلى ما ينبه المؤمنين إلى العواقب الوخيمة التى تأتيهم عن طريق النفاق أو الخداع من عدائهم : الماديين :: أو المحرفين لرسالة الله فيما سبق) ثم إلى ربهم يحشرون (ورغم تحدى هؤلاء الماديين وإنكارهم البعث :: فإنهم سيبعثون ويحشرون، ويجمعون فى لقاء مع الله يوم الجزاء ::

... ويلاحظ أن القرآن يكرر تأكيد وقوع : البعث والجزاء الأخروى: لأن الماديين يركزون على إنكاره : إذ فى إنكاره : مصلحتهم ، وهى البقاء فى حدود الدنيا وحدها ، وتحديد أهدافهم بمنافعها ومتعها ، دون ماسواها. ومن ثم يمكن أن يرموا أعداءهم من المؤمنين الذين يتحدثون عن اليوم الآخر : بأنهم يعيشون فى وهم وفى خداع . وطالما ليس هناك جزاء آخر فى نظر الماديين :: فالدنيا هى محل العمل والجزاء معاً .

وتأكيد البعث والجزاء الأخروى – من وجهة نظر الدين – يستهدف تقليل الشحناء والخصومات فى الدنيا بسبب المتع المادية ، لأن هناك جزاء آخر :: كما يستهدف انصراف الإنسان إلى العمل المستقيم فى الدنيا ، وعدم تأثره بشهواته وإغراء ملذات هذه الحياة . وبذلك تكون فرص السلام والوئام بين الناس جميعاً أكثر :. وتقل بالتالى دائرة القتال والحروب بينهم فى حياتهم الأرضية) » ::

* * *

﴿ وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌّ وَبُكْمٌ فِي الظُّلُمَاتِ ۗ مَن يَشَإِ اللَّهُ يُضْلِلْهُ وَمَن يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٩﴾ ﴾

والسبب فى أن هؤلاء الماديين المشركين يصرون على المعارضة ويكذبون القرآن وينعتونه بالأساطير .. أنهم يغلقون أسماعهم دونه فهم صم عنه ، ولا ينقلون بألسنتهم كلمة الحق فيه فهم بكم . وبذلك يعيشون فى الظلمات ، أرقاء للتخبط والحيرة . فلهم إرادة ومشيئة فى الانصراف عن القرآن والرسالة : « والذين كذبوا بآياتنا (وآيات الله هى كتابــه ، وهو معجزة الرسول عليه السلام) : صم .. وبكم .. فى الظلمات ، من يشأ الله يضلله ، ومن يشأ يجعله على صراط مستقيم (وإرادة الله فى كفر من يكفر هى : أن يترك المكذب فى تكذيبه .. يغلق سمعه دون كلمات الحق ، ويكم فه عن أن ينطق بها ، فيعيش عندئذ فى ظلمات حيرته وضلاله وبذلك يكون كافراً . أما إرادته — جل جلاله — فى هداية من يؤمن .. فإنه يعينه على أن يكون حريصاً على سماع الحق .. ناقلا إياه لغيره .. راغباً فى العمل بما جاء به . وهنا ينتقل إلى الخط المستقيم : فى الإيمان والاعتقاد .. وفى العمل والسلوك) » .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتَكُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٤٠﴾ بَلْ إِيَّاهُ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِن شَاءَ وَتَنسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ ﴿٤١﴾ ﴾

يستمر القرآن الكريم — فى سورة الأنعام هنا — فى محاورة المشركين ، بعد أن يكشف عن الدوافع .. والعوامل .. والأوضاع .. التى تحتم عليهم البقاء فى الشرك والمادية ولكى يظهر لهم أن بقاءهم على الشرك والمادية غير منطقى وغير واقعى يأمر رسوله صلى الله عليه وسلم أن يواجههم بهذا السؤال :

«قل : أرأيتكم : إن آتاكم عذاب الله ، أو أتتكم الساعة : أغير الله تدعون إن كنتم صادقين ؟ (أى هل فكرتم بينكم وبين أنفسكم — عندما ينزل بكم عقاب الله فى دنياكم ، أو يحل قيام الساعة فجأة ، فلا ملجأ لكم آنئذ من توبة ورجوع إلى الحق والإيمان به :. تتجهون إلى غير الله فى أن يكشف عنكم سوء العقاب أو يخلصكم مما أنتم فيه ؟.. أتتجهون إلى أصنامكم وما عبدتموهم من دون الله ؟ : إنكم لاتتجهون إلا إلى الله : وهذا ما هو كائن فى قرارة نفوسكم ، ويجب أن تعبروا عنه إن كنتم صادقين مع أنفسكم :: ومع الواقع ،) بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون اليه إن شاء ، وتنسون ما تشركون (وإنه على سبيل التأكيد ستتجهون إلى الله — وقت الشدائد — ليدفعها ويكشفها عنكم : وهو سبحانه قادر على كشفها ودفعها ، إن أراد ذلك ، وعندئذ — أى عندما تدعون الله — تغفلون ذكر أصنامكم. وهذا واضح : لأنه عندما يدعى الله لا يذكر غيره معه .. وعندما يدعى غير الله لا يذكر الله معه ، اذ هو واحد .. أحد . وإذا كان الله وحده — دون أصنامكم وشركائكم — هو الذى تتجهون اليه وقت الأزمات والشدائد من أعماق نفوسكم :. فلماذا لا تؤمنون به وقت الرخاء وأنتم فى دنياكم تمرحون وتجادلون بالباطل ؟.. ولما لا تنسون شركاءكم وأصنامكم إلى الأبد ، لأنهم لا يستطيعون كشف الغمة والمصائب عنكم ، إن نزلت بكم .. كما لا يستطيعون لكم نفعاً . وهذا المنطق فى الحوار مع نتائجه قصد به : التسجيل على هؤلاء الهادين الوثنيين : أنهم لا يتبعون منطقاً .. ولا يسايرون واقعاً : فى موقفهم من الإيمان بالله جل شأنه ، ومن معارضة الرسول عليه السلام فى دعوته) » .

★ ★

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَآ إِلَىٰٓ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمْ يَتَضَرَّعُونَ ﴿٤٢﴾ فَلَوْلَآ إِذْ جَآءَهُم بَأْسُنَا تَضَرَّعُوا۟ وَلَٰكِن قَسَتْ قُلُوبُهُمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٤٣﴾ فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾

ولكى يستقر الأمر عند الرسول ، وأن معارضة الماديين له : هى معارضة لدعوته ومبادئها.. وضع القرآن فى هذه السورة أمامه : ظاهرة اجتماعية ، تعبر عن قانون يحكم المجتمع البشرى ، ولا يتخلف أبداً ، وهذا القانون هو: أن المجتمع البشرى فى صلته بالله : يختبر بالفقر والحرمان مرة.. وبالنعم والرفاهية مرة أخرى . فإذا لم يطع الله فى وقت فقره وحرمانه ، واستمر على عدم طاعته فى عهد نعمته ورفاهيته .. كانت الإبادة والهلاك عاقبة أمره . وقد أجمل هذا القانون فى سورة الأنبياء فى قول الله تعالى : «**كل نفس ذائقة الموت .ونبلوكم بالشر والخير فتنة .وإلينا ترجعون**»(1) .

ووضح بعض التوضيح هنا فى سورة الأنعام . إذ يقول الله تعالى : « ولقد أرسلنا إلى أمم من قبلك (أى أرسلنا اليهم برسالات ، وبرسل) فأخذناهم بالبأساء والضراء لعلهم يتضرعون (أى فابتليناهم أولا بالفقر والجوع والأمراض انتظاراً منهم أن يطيعوا ويخضعوا لله ، ويؤمنوا برسولهم وبرسالته) . فلولا إذ جاءهم بأسنا تضرعوا ! ولكن قست قلوبهم ، وزين لهم الشيطان ما كانوا يعملون (ولكن هل خضعوا أو أطاعوا الله ورسوله عندما حل بهم الفقر والحرمان ؟. إنهم لم يخضعوا ولم يطيعوا بسبب تصلبهم فى موقفهم وعنادهم فى تمسكهم ، فقلوبهم لم تلن للإيمان . وذلك بسبب تمكن الشيطان منهم وتصويره لهم : إن ما هم عليه من موقف هو أحسن

---

(1) الأنبياء ، ٣٥ .

المواقف وأليقها . وشيطانهم هو نفوسهم وما تأثرت به من عاداتها وتقاليد في المادية وانحرافاتها) فلما نسوا ما ذكروا به فتحنا عليهم أبواب كل شيء (أي فلما طال عهد الرسالة معهم ، وطال وقت معارضتهم لها ، حتى كادت تنسى الرسالة وينسى معها : تبليغهم إياها ، واستمروا على ما هم فيه .. عندئذ تغير شأن الابتلاء في سبيل الطاعة . فبدلا من : الفقر :: ابتليناهم ثانياً بالنعم ، ففتحت منافذ الطيبات عليهم من كل جانب ، وأصبحوا في ثراء بعد حرمان : وفي صحة بعد مرض .. وفي حاله نفسية مرحة ، بعد كآبة وضيق نفس) حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة ، فإذا هم مبلسون (ولكن لم يدم هذا الوضع النفسي كثيراً لهم — وهو وضع الفرح والمرح بالثراء .. وبصحة البدن إلا ريثما حلت بهم الكوارث ، فأصبحوا من جديد في يأس وفي حيرة من أمر أنفسهم ، كما أصبحوا في حزن وندم) فقطع دابر القوم الذين ظلموا (وانتهى أخيراً مجتمعهم : وهو مجتمع الظالمين لأنفسهم باستغراقهم في المادية .. وانحرافاتها :: وفسادها :: وطغيانها . إذ أن استغراقهم في المادية كان السبب في عنادهم في المعارضة .. وعدم طاعة الله والإيمان وحده ، سواء : في وقت مسرتهم :: أو في وقت ضرهم .

وهكذا : نعم الله على مجتمع ما ، يجب أن تدفع هذا المجتمع إلى مزيد من الطاعة ، وإلى مزيد من الإيمان بالله وحده وليس إلى العكس : فمع كونها : نعماً ، هي مادة للاختبار والابتلاء في السلوك والاعتقاد : وكذلك رفع هذه النعم من مجتمع ما ، يجب أن يحمل على الصبر والمزيد في التقرب إلى الله ، فالفقر .. أو المرض إن شقي به المجتمع يجب أن يتعلم منه الصبر : والقربى من الله بسببه ، فما يصيب الإنسان من أذى :: ينطوي كذلك على الابتلاء والاختبار في الصبر على ما قسم به الله جل جلاله .

وهكذا : نهاية المجتمع الفاسد العاصي :: نهاية المجتمع المادي الملحد :: نهاية المجتمع المشرك بالله والمستهزىء بكتاب الله وبدين الله :: هي اليأس والحيرة .. ثم الزوال والهلاك بعد عزة وقوة .. وبعد رغد في العيش ويسر

فى الحال : « حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة فإذا هم مبلسون (أى فى حيرى وفى يأس) . فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين (أى هو وحده : رب الوجود كله .. يستحق الحمد . لأنه قطع دابر الفساد والعبث ، فقضى على المفسدين والعابثين .

وهكذا : رب العالمين يمهل ولا يهمل ، ولكنه صاحب قضاء مبرم ، إذا قال للشيء : كن . فيكون . وهكذا الحمد والثناء له : يحمده المؤمن ، لأنه لا يتركه أبداً : لشرس المادية .. وطغيانها) » .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَخَذَ ٱللَّهُ سَمْعَكُمْ وَأَبْصَـٰرَكُمْ وَخَتَمَ عَلَىٰ قُلُوبِكُم مَّنْ إِلَـٰهٌ غَيْرُ ٱللَّهِ يَأْتِيكُم بِهِ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُصَرِّفُ ٱلْـَٔايَـٰتِ ثُمَّ هُمْ يَصْدِفُونَ ﴿٤٦﴾ قُلْ أَرَءَيْتَكُمْ إِنْ أَتَىٰكُمْ عَذَابُ ٱللَّهِ بَغْتَةً أَوْ جَهْرَةً هَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٤٧﴾

وتسترسل السورة فى محاورة الماديين لتوضيح مفاسد اتجاهاتهم ، فيأمر القرآن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أن يضعهم أمام سؤالين آخرين ، السؤال الأول : هل فكرتم إذا سلبكم الله نعمة الإنسانية — وهى نعمة العقل والإدراك — ممثلة فى السمع . . والبصر . . والقلب : أن هناك إله غير الله يعيدها اليكم ؟ ليس هناك غيره سبحانه : « قل : أرأيتم إن أخذ الله سمعكم وأبصاركم وختم على قلوبكم (أى طبع عليها وغلفها ، فلا تفقه ، ولا تشعر) ، من إله غير الله يأتيكم به ؟ (أى يعيد عليكم ما أخذ منكم) . أنظر : كيف نصرف الآيات (أى تأمل — يارسول الله صلوات الله عليك — : كيف نوضح الأمارات الدالة على وحدانية الله بعبارات مختلفة وبمسالك متنوعة) ، ثم هم يصدفون (أى ومع ذلك : هم ينصرفون عن الدعوة ويصدفون عنها ، ويستمرون فى عنادهم فى معارضة الرسول عليه السلام ، على خلاف مقتضى ما جاء من تعدد الأمارات والدلالات الواضحة على وحدانية الله) . والسؤال الثانى : هل فكرتم أيها الماديون المشركون فى أنفسكم إن وقع

عقاب الله من غير سابق إنذار ، أو حل بعد عديد من الإنذارات :: هل تعتقدون أنه يصاب بهذا العقاب غير الظالم ؟ إنه لا يصاب به إلا الظالمون. لأن عقاب الله ليس انتقاماً وإنما هو عدل فى جزائه . وهذا السؤال الثانى هو مضمون قوله سبحانه هنا : « قل : أرأيتكم ، إن أتاكم عذاب الله بغتة ، أو جهرة (أى مفاجأة من غير إنذار .. أو علنا بعد إنذار أو إنذارات) هل يهلك إلا القوم الظالمون ؟ (ونتيجة هذين السؤالين : تقرير : أن الله — لا غيره — هو الذى بيده كل شىء ، وهو وحده الذى يتصرف فى كونه وفى خلقه . وإذن إعراض المشركين الماديين عن الإيمان بوحدة ألوهيته .. إعراض لا يقوم على منطق .: ولا يحقق مصلحة لمن يرفض الإيمان به . وستكون نهاية أمرهم : هلاكهم ، بسبب ظلمهم لأنفسهم ، وليس انتقاماً منهم) » .

وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ ءَامَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٤٨﴾ وَٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِنَا يَمَسُّهُمُ ٱلْعَذَابُ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ ﴿٤٩﴾

ثم أوضحت السورة : أن مهمة الرسل ليست حداً من حرية الإنسان : فى قبول الإيمان بالله وحده .: أو فى رفضه .. وليست لأن يتلهى بهم أو يقترح عليهم . وإنما هى مهمة جادة .. هى مهمة تعليم ، وتذكير :: هى مهمة بشارة لمن يؤمن :: وإنذار لمن يكفر : « وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين ، فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم : يحزنون (أى وهناك نتائج تترتب على تبليغهم الرسالة : فالذى يقبلها من الناس ، ويطبع حياته طبقاً لتعاليمها .. فهو آمن على نفسه ، وعلى ماله ، وولده : لا يخاف الناس ، لأن استقامته فى حياته ، وسلوكه العادل غير المنحرف : يجنبه حقد الناس ، ووشايتهم به ، وتآمرهم عليه ، وكيدهم له : وكذلك هو غير حزين لأنه لم يستهدف الدنيا لذاتها . وإنما يعيش فيها ليتخذ منها

مسلكاً وممراً لدار أفضل منها ، وهى الدار الآخرة . ولذا : إن فات عليه أمر فى دنياه فلا يضيق نفساً على فواته ، ولا يحزن على ضياعه : إن كان بيده .. ثم ولى) والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب (أما أولئكم الآخرون — وهم الماديون المشركون — الذين يرفضون دعوة الإيمان .. فلابد أن ينالهم العذاب فى دنياهم قبل آخرتهم . لأن الذى يرفض دعوة الإيمان بالله وحده .. إنما يرفضها للحرص على مصلحة خاصة تفوت عليه بإيمانه .. يرفضها بسبب زعامة وسلطة .. يرفضها بسبب منافع أو متع مادية .. يرفضها بدافع من أنانيته . ومثل هذا المادى الرافض لا يركن إلى غيره ، ولا يأمن على نفسه من الآخرين ، بسبب تعديه على حقوقهم أو حرماتهم . فهو يعيش إذن فى قلق . والقلق نفسه عذاب : أى عذاب) بما كانوا يفسقون (والعذاب الذى سيمس هؤلاء الماديين الرافضين للإيمان بالله وحده : وهو جزاء وفاق لفسقهم وخروجهم عن صراط العدل فى المعاملة ، والاستقامة فى السلوك . فلا يصيبهم — ظلماً وعدواناً — وإنما هو نتيجة موقفهم هم) » .

قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴿٥٠﴾ وَأَنذِرْ بِهِ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَن يُحْشَرُوٓا۟ إِلَىٰ رَبِّهِمْ لَيْسَ لَهُم مِّن دُونِهِۦ وَلِىٌّ وَلَا شَفِيعٌ لَّعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٥١﴾

وأنت أيها الرسول — عليك صلوات الله — : بعد أن وقفت على مهمة الرسالة والرسل وأنها مهمة جادة ترتبط بصلاح البشر وسلامهم وأمنهم .. وأنها لم تكن لتحد من حرية الناس فى الإيمان بها .. فاسلك فى الدعوة إليها ما يلائمها : لا تقل لمن تبلغهم هذه الدعوة : إن عندى خزائن الله ، كى تخدعهم ، وتؤثر عليهم بالمال فى قبول الإيمان بها . وبذلك تقلص حريتهم فى شأن قبولها : « قل : لا أقول لكم : عندى خزائن الله (.. ولا تقل لهم :

إنى أعلم الغيب — كما يدعى الكهان لأنفسهم ، بغية تدخلهم فى العقيدة ، وفى شئون الحل والحرمة ، لمصلحة خاصة من وراء هذا التدخل ، وللتأثير على أتباعهم) : « ولا أعلم الغيب .. ولا أقول لكم : إنى ملك (أى غير مستوى البشر . وإنما أنا بشر ، آكل كما يأكل الناس ، وأمشى فى الأسواق) إن أتبع إلا ما يوحى إلى ، (أى وكل ما أملك فى شأن الرسالة ، هو ، أنى أكون فى طاعة ما ينزل إلى عن طريق الوحى فى كتاب الله ، لا أخالفه إلى غيره .. ولا أتحكم به .. ولا أفرضه وألزم الناس به) قل ، هل يستوى الأعمى ، والبصير (أى وطالما لم يكن هنالك إلزام فى مهمة الرسول فى أية صورة ما : فى صورة الإغراء والخداع ، أو صور أخرى ، ولا حد من حرية تبليغهم دعوته ، فى الإيمان ، أو الكفر بها — وبذلك يكون عرضها للإيمان والكفر عرضاً موضوعياً — فالذى يهتدى بها ، يهتدى من نفسه ، والذى يكفر بها يكفر من نفسه . فنورها واضح . فمن الناس من يراه ويقبل عليه .. ومنهم لا يراه فيدير له ظهره . ولا يستوى عندئذ من أبصر هذا النور ، ومن عمى عنه ، مع أن الفرصة التى أتيحت لها واحدة .. ومع أن كلا منهما كفلت له الحرية والمشيئة إزاءها .. لا يستويان فى الهداية ، والحيرة .. ولا يستويان أيضاً فى التجرد من العوامل الخارجية ٠٠ أو فى التميز . والتأثر بها) أفلا تتفكرون ؟ (أى أفلا تستخلصون أيها الماديون المشركون بتفكيركم الإنسانى ٠٠ هذه المفارقه فتعرفون أن من آمن واهتدى كان صاحب حرية فيما آمن به ٠٠ وأن من كفر لم يتخلص بعد من تلك العوامل التى ربطته باتجاهه المادى وبأنانيته ٠٠ ومن ثم يجب أن تراجعوا موقفكم وتحللوا أسباب جمودكم فيه ، وعدم تحرككم ٠٠ نحو الإيمان بالله وحده . وأنت — عليك الصلاة والسلام — لا تقف فى دعوتك ، ولا تتأثر برفض هؤلاء الماديين المشركين لها ، لأنهم لم يرفضوها عن حجة ، وإنما كان رفضهم إياها لهوى وشهوة) وأنذر به (أى بما يوحى إليك) الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم (أى أولئكم الذين يشفقون على أنفسهم من لقاء الله فى الآخرة . وهم غير المستكبرين فى

المجتمع ، الذين ليست لهم مصلحة خاصة في العناد والتحدى .. هم المستضعفون الذين لا يتشبثون بإنكار الألوهية واليوم الآخر) ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع (ولذا — لأنهم مستضعفون — ليس لهم حول ولا قوة ، وراء الله سبحانه وتعالى .. ليس لهم جاه .. ولا عصبية.. ولا زعامة فى قومهم يستندون إليها .. ليس إلا الله يشفع لهم ويواليهم ، وينقذهم مما يتورطون فيه ، تحت تأثير المستكبرين عليهم) لعلهم يتقون (ومن أجل وضع هؤلاء المستضعفين الاجتماعى ، والنفسى .. هناك أمل فى تقواهم وفى إيمانهم ، عندما يبلغون رسالة الله .. هناك أمل فى إنقاذهم من مخالب هؤلاء المستكبرين الذين يحرصون بعنادهم فى الكفر على ما لهم من زعامة وسيادة فى أقوامهم : ولذا يجب أن يتجه بتبليغ القرآن إليهم وإنذارهم به) » :

وَلَا تَطْرُدِ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِم مِّن شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآ ۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾

ولأن المستضعفين من المشركين هم محل أمل فى قبول الدعوة لو عرضت عليهم .. كذلك الذين قبلوها بالفعل منهم وهم من الضعفاء — وليسوا من الأشراف وأصحاب الوجاهة فى القوم — تجب العناية بهم : «ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشى (أى لا تستنكف : — أيها الرسول صلوات الله عليك — من هؤلاء المؤمنين الضعفاء الذين أسلموا من المشركين والذين يتجهون دوماً إلى الله وحده فى صباحهم ومسائهم بعد أن آمنوا : فهم مخلصون فى إيمانهم . وبالأخص : أنهم لا يحملون مسئوليتك، وأنت كذلك لا تحمل مسئولية فى أى عمل ما) يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم

من شىء ، وما من حسابك عليهم من شىء فتطردهم فتكون من الظالمين. (فليس إذن هناك ما يبرر النفرة منهم ، ولا ما يبرر أيضاً : عدم لقائهم لقاء كريماً . فطالما هم مخلصون لوجه الله فى عبادتهم وفى إيمانهم . . وطالما لا يحمل أحد منكم وزر الآخر .. فليس هناك مقتض لطردهم وإبعادهم عن مجلسك ولقائك . وإلا كنت معتدياً عليهم . وكونهم ليسوا من الكبراء والزعماء فى مكة .. ليس بسبب لإقصائهم أو للتذمر منهم .

فنى ضعف هؤلاء : تكمن قوتهم فى الإيمان . والقوة فى الإيمان عزة للدعوة ومؤازرة لها . وطلب القرآن من رسول الله عليه السلام : عدم إغضاب هؤلاء المؤمنين الضعفاء فى مكة — إذن — على جانب كبير من الأهمية المنهجية فى إنجاح دعوة الإصلاح ، لأنه يرتبط بتأليف النفوس وتجميعها ، وشد أزرها : بعضها ، ببعض . أما كبراء المشركين وزعماؤهم فمع كون الأمل فيهم ضعيفاً .. فإن قدوتهم السيئة تؤثر تأثيراً سلبياً على الدعوة وسيرها) وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا : أهؤلاء .. من الله عليهم من بيننا ؟ (وبتحويل بعض المستضعفين فى مجتمع المكيين الماديين . إلى مؤمنين بالله وحده .. وضعنا المستكبرين والزعماء فى هذا المجتمع ، موضع الاختبار والتجربة . ولذا : كان إيمان أولئكم فتنة واختباراً لهم . ولكنهم لم يفيدوا من هذا الاختبار . بل على العكس أثار فيهم : روح النقد .. والاعتراض . والسخرية ، فقالوا مستكبرين : أهؤلاء الذين أنعم الله عليهم من بيننا بالإيمان به ؟ وسخريتهم بإيمان هؤلاء لا يضيف وزراً إلى أوزارهم فى الكفر والعناد فيه فقط . بل يظهر مع ذلك فساد منطقهم . وهو : أن إيمان الثرى أو الوجيه — أو المستكبر فى المجتمع — أقوى أثراً على أمة الإيمان من إيمان المستضعف الذى لا حول له ولا جاه . وفساد هذا المنطق ؛ لأن درجة الإيمان ومستواه هو : صاحب الأثر ، على أمة الإيمان ، وليس : ثراء المؤمن ، أو فقره .. ولا جاهه ، وعدم جاهه هو صاحب هذا الأثر). أليس الله بأعلم بالشاكرين ؟ (ولكن الله وحده هو الذى يعلم الأثر السلبى ..

والآخر الايجابي على أمة الايمان .. من إيمان من يؤمن من أصناف المجتمع وطبقاته .. يعلم بالشاكرين لله بالتعبير عن شكرهم بالإيمان وحده ، وعن مبلغ أثر إيمانهم : على الدعوة .. وعلى أمة الايمان معا . ولذا : إيمان هؤلاء المستضعفين فى المجتمع هو الركيزة الأولى فى تكوين أمة الإيمان :: ثم فى ترابط أفرادها وتماسكهم ، بحيث أصبحت ذا حول وذا قوة ، قوضت بهما مجتمع الماديين المكين وأزالت نفوذ المستكبرين والزعماء فيه :: يوم فتح مكة) » :

﴿ وَإِذَا جَآءَكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِـَٔايَـٰتِنَا فَقُلْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ ۖ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَىٰ نَفْسِهِ ٱلرَّحْمَةَ ۖ أَنَّهُۥ مَنْ عَمِلَ مِنكُمْ سُوٓءًۢا بِجَهَـٰلَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُۥ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ وَلِتَسْتَبِينَ سَبِيلُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٥٥﴾ ﴾

ولهذا : « إذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا ، فقل : سلام عليكم (أى استقبل هؤلاء الذين آمنوا — وكذلك كل من يؤمن بكتاب الله — بما يوحى إليهم الاطمئنان والأمان) كتب ربكم على نفسه الرحمة (أى وأكد لهم مع ذلك : أن رحمة الله وغفرانه لما مضى من الأخطاء ، ممن آمن منهم :: أمر واقع لا محالة ، كما تؤكد لهم) : أنه من عمل منكم سوءاً بجهالة ، ثم تاب من بعده وأصلح ، فأنه غفور رحيم (فكل من باشر خطأ عن غير قصد إليه: ثم رجع إلى الله وعاد عن أخطائه ، وأصبح مستقيما فى سيره وفى عمله ... معفو عنه ، وتسعه رحمة الله وغفرانه .

وتطمين المؤمنين — بعد دخولهم الإيمان — على الصفح عن ماضيهم ، وعلى أن من يرتكب منهم ذنباً عن غير قصد ، يغفر له ، إن عـــاد مخلصاً لله واستقام فى سلوكه ومعاملاته .. من شأنه أن يفسح أمامهم طريق العمل فى الحياة ، وهم غير مثقلين بذنوب وأخطاء ارتكبت لا سبيل إلى العفو عنها ، حسبما كان يروج قبل الدعوة الاسلامية) وكذلك : نفصل الآيات ،

«ولتستبين سبيل المجرمين (وهكذا : فى رسم الموقف من صاحب الدعوة إزاء طبقات المجتمع .. وفى معاملة المستضعفين فيه على وجه خاص ، نوضح ما يجب توضيحه . ومن ثم : ستبرز معالم الطريق الأخرى التى يسلكها الضالون ، وقد أجرموا فى حق أنفسهم بضلالهم ، وفى حق غيرهم بصدهم عن سبيل الله) » .

قُلْ إِنِّي نُهِيتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُل لَّآ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ ﴿٥٦﴾ قُلْ إِنِّي عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّي وَكَذَّبْتُم بِهِۦ مَا عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦٓ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴿٥٧﴾ قُل لَّوْ أَنَّ عِندِي مَا تَسْتَعْجِلُونَ بِهِۦ لَقُضِيَ ٱلْأَمْرُ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٨﴾

ثم اتجه الآن — أيها الرسول عليك صلوات الله — إلى هؤلاء المستكبرين فى المجتمع المكى الذين لا يرجون لقاء الله ، كممثلين للاتجاه المادى فى كل وقت ، وأنذرهم بثلاثة أمور ، هى أكثر ما تكون تعبيراً عن الصلابة فى الموقف منهم .. وأكثر ما تكون تأكيدا للصلة القريبة بالله .. وأكثر ما تكون وضعا لرسالة الرسول فى وضعها الصحيح :

الأمر الأول : أنذرهم بأنك — مهما كلفك ذلك من عنت أو مشقة — لن تعبد ما يعبدون هم ، ويدعونهم شركاء لله : « قل : إنى نهيت أن أعبد الذين تدعون من دون الله » ..(وأنك لن تستجيب إلى أهوائهم وأغراضهم فى هذا الشأن ، مهما كان من إغراء لك أو قسوة فى المعاملة توجه إليك منهم) : «قل : لا أتبع أهواءكم » .. (لأن الاستجابة إلى أهوائكم وأغراضكم فيها الضياع لى .. فيها الخطر كل الخطر على الرسالة التى التى كلفت بها ، وهى رسالة الدعوة إلى الإصلاح البشرى : فى الاعتقاد ، والروابط

النفسية ، والاجتماعية ٠٠فيها الضلال وعدم التخلص منه) : « قد ضللت إذاً ، وما أنا من المهتدين » .

الأمر الثانى : أنذرهم بأنك على وضوح تام بمضمون رسالتك وشأنها . فليس فيها أى لبس أو غموض يجعلنى أتردد فى معرفة المقصود منها ، بحيث أميل إلى اتجاهكم المادى العابث لحظة ما) : « قل : إنى على بينة من ربى أى من أمر ربى فيما يوحى به إلى ٠٠ وقد أبلغتكم هذا المضمون الواضح للرسالة ، وجادلتكم فى شأنه ، وصبرت على منطقكم المادى فى المحاورة : « وكذبتم به ، ما عندى ما تستعجلون به » ٠٠ (ومع ذلك كذبتم بما يوحى إلى ، وتحديتمونى وطالبتم بنزول العقاب الذى أعلنته لمن يكفر به ، ولكن ليس من اختصاصى كرسول أرسل من عندالله برسالة الهداية البشرية ، وليس فى مقدورى كذلك ، أن أفى لكم بما أعلنته فى شـــأن العقاب) ، « إن الحكم إلا لله » (وإنما ذلك من اختصاص المولى جل شأنه ، وفى مقدوره هو وحده) يقص الحق ، وهو خير الفاصلين (لأنه كما يوحى بالحق فى رسالته ، هو خير من يحدد الجزاء للمؤمن والكافر ، على السواء : فلا يظلم فيما يجازى به ، ولا يقول إلا صدقاً : فيما ينصح به الناس جميعاً ، إذ ليست له مصلحة خاصة فيما يقوله ويرشد به) .

الأمر الثالث : أنذرهم بأن العقاب لوكان بيدك — وليس بيد الله وحده — لكان فصل الأمر بينى وبينكم هيناً . لأنى كنت أنزله فورا ، أو أرجئه إلى حين . وإن أنزلته فربما كان هناك من لايستحقه — لأنى بشر من الناس — وإن أرجأته فربما لحسوبية أو لقرابة أو غيرها ، لأنى بشر من الناس كذلك . ولكن إذ كان الأمر بيد الله ، فالله سبحانه لا يظلم : لا فى إنزال العقوبة ٠٠ ولا فى توقيتها : « قل : لو أن عندى ما تستعجلون به (أى من العقاب) لقضى الأمر بينى وبينكم (أى لكنت أنا الفاصل فيه) والله أعلم بالظالمين . (أعرف بهم فى حقيقتهم ٠٠ وفى ظروفهم ٠٠ وفى آثار ظلمهم) .

﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلۡغَيۡبِ لَا يَعۡلَمُهَآ إِلَّا هُوَۚ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۚ وَمَا تَسۡقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعۡلَمُهَا وَلَا حَبَّةٖ فِي ظُلُمَٰتِ ٱلۡأَرۡضِ وَلَا رَطۡبٖ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٖ (٥٩) وَهُوَ ٱلَّذِي يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيۡلِ وَيَعۡلَمُ مَا جَرَحۡتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبۡعَثُكُمۡ فِيهِ لِيُقۡضَىٰٓ أَجَلٞ مُّسَمّٗىۖ ثُمَّ إِلَيۡهِ مَرۡجِعُكُمۡ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ (٦٠) وَهُوَ ٱلۡقَاهِرُ فَوۡقَ عِبَادِهِۦۖ وَيُرۡسِلُ عَلَيۡكُمۡ حَفَظَةً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلۡمَوۡتُ تَوَفَّتۡهُ رُسُلُنَا وَهُمۡ لَا يُفَرِّطُونَ (٦١) ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوۡلَىٰهُمُ ٱلۡحَقِّۚ أَلَا لَهُ ٱلۡحُكۡمُ وَهُوَ أَسۡرَعُ ٱلۡحَٰسِبِينَ (٦٢) قُلۡ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِ تَدۡعُونَهُۥ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةٗ لَّئِنۡ أَنجَىٰنَا مِنۡ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ (٦٣) قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنۡهَا وَمِن كُلِّ كَرۡبٖ ثُمَّ أَنتُمۡ تُشۡرِكُونَ (٦٤) قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ أَوۡ يَلۡبِسَكُمۡ شِيَعٗا وَيُذِيقَ بَعۡضَكُم بَأۡسَ بَعۡضٍۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُصَرِّفُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَفۡقَهُونَ (٦٥) وَكَذَّبَ بِهِۦ قَوۡمُكَ وَهُوَ ٱلۡحَقُّۚ قُل لَّسۡتُ عَلَيۡكُم بِوَكِيلٖ (٦٦) لِّكُلِّ نَبَإٖ مُّسۡتَقَرّٞۚ وَسَوۡفَ تَعۡلَمُونَ (٦٧) ﴾

وعلم المولى ــ سبحانه ــ علم مطلق وغير محدود • فى شموله وسعته .:. وفى دقته واستقصائه ، إذ عنده مفاتح الغيب .:. عنده أسرار الغيب كلها ولا يملك كشفها سواه • « وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ، ويعلم ما فى البر والبحر (أى فى ظاهر الوجود وباطنه) وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبة فى ظلمات الأرض (أى فى قاعها) ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين (أى إلا مدون فى سجل تدوينا واضحاً لا لبس فيه : والمقصود • أن كل هذه الجوانب من جوانب الحياة التى تحيط بالإنسان ، ويعيشها الإنسان .:. هى فى متناول علم الله وحده : وعندما يترك له وحده أمر عقاب الظالمين .:. فقد ترك لمن هو لا نظير له فى العلم : إن فى إحاطته ،

وإن فى الوقوف على الخفايا والدقائق : وإذا كان الله وحده عنده مفاتيح الغيب .. فليس له شريك من جن أو إنس فى علمه . ومن يعلم مما سواه فانه يعلم بقدر ، وبإذنه جل جلاله : ويستحيل إذن أن يسرق علمه كائن من كان) وهو الذى يتوفاكم بالليل ، ويعلم ما جرحتم بالنهار ، ثم يبعثكم فيه (وبجانب علمه المحيط والدقيق — جل جلاله — هو وحده الذى يسلبكم — أيها الماديون المشركون — اليقظة بالليل ، ويعيدها إليكم بالنهار ثانية ،ويعلم ما تصنعونه وما تباشرونه فيه من نشاط) ليقضى أجل مسمى (وهكذا . وضع الإنسان بين غفلة ، ويقظة .. بين ليل ونهار .. بين عمل ، ولاعمل إلى أجل محدد لعمره) ثم إليه مرجعكم ، ثم ينبئكم بما كنتم تعملون (وفى نهاية الأجل المحدد تعودون جميعاً إليه سبحانه . وفى يوم اللقاء . تعرض عليكم أعمالكم عرضاً دقيقاً . إن كانت حسنة .. أو سيئة) . وهو القاهر فوق عباده (وهذا التخطيط لعلمه الشامل . فى الكون وفى دائرة الإنسان .. لأنه المتفوق على عباده) ويرسل عليكم حفظة ، حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا ، وهم لا يفرطون (وآية تفوقه كذلك . أنه يرسل على البشر . ملائكة تراقب أعمالهم وتحفظها إلى يوم الآخر .. حتى إذا انتهى أجل إنسان منهم باشر وفاته فريق آخر من الملائكة ،لا يقصر أبداً فى رسالته التى كلف بها من قبل ربه) . ثم ردوا إلى الله مولاهم ؟ الحق ، ألا له الحكم ، وهو أسرع الحاسبين(ومن الوفاة :: إلى يوم البعث. وفى هذا اليوم تجمع الناس جميعا أمام المولى جل وعلا ، وليس هناك : حكم سواه . وفى محاسبته على أعمال الناس أمامه.. هو أسرع الحاسبين ولسنا نستطيع أن نحدد سرعة حسابه بمقاييسنا التى نتداولها فيما بيننا) ؟ قل من ينجيكم من ظلمات البر والبحر ، تدعونه تضرعا وخفية : لئن أنجانا من هذه ، لنكونن من الشاكرين (وهنا يدخل القرآن — فى هذه السورة فى محاورة جديدة مع هؤلاء الماديين المشركين فى المجتمع المكى ، بعدما أوضح التفوق الكامل للمولى جل جلاله : فى ضبط أعمال البشر . . ومراقبتها . . والمحاسبة عليها يوم الجزاء .. هنا يكلف الرسول — عليه الصلاة والسلام —

بأن يعبر عما يخالج نفوسهم وقت الأزمات والشدائد .. وقت الظلمات والحيرة في أي مكان : في البر ، أم في البحر : عندئذ يتجهون إلى الله في ذلة وخشية ، وفي سرية ومن أعماق قلوبهم .: سائلين إياه : أن ينجيهم مما هم فيه ، على وعد أكيد منهم : أنه إذا نجاهم من كربهم هــذا . . آمنوا به وأخلصوا إليه الطاعة ، تعبيراً عن شكرهم إياه ، سبحانه) قل الله ينجيكم منها ، ومن كل كرب ، ثم أنتم تشركون (ولـكن يجب أن يوضح لهم وضعهم من الإيمان بالله .. يجب أن تذكر لهم . أن خاصة نفوسهم هي. أن ميلهم إلى الشرك والمادية يغلب على طبعهم : فالله ينجيهم من هذه الحيرة والشدة — وكل حيرة وشدة أخرى — ولكن مع ذلك ، سيغلب عليهم ميلهم إلى الشرك والوثنية). قل : هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم (وأعلنهم أيضاً أن العذاب الذي يستعجلونه في الدنيا — وأنت لا تملكه — في استطاعة المولى جل شأنه : أن يصيبهم به بوسائل متنوعة : على نحو ما صنع مع قوم نوح ولوط .: أو على نحو ما أصاب فرعون وقارون . وفي استطاعته كذلك أن يعمم بعذابه : المستكبرين ، والمستضعفين على السواء) أو يلبسكم شيعا ، ويذيق بعضكم بأس بعض (وبجانب الأحداث الكونية التي تمثل عذاب الله لكم :. يمكن أن يكون هذا العذاب عن طريق الأحداث الاجتماعية .. يمكن أن يجعلكم شيعا وأحزابا ويوجه نفوسكم ضد بعضكم بعضا كراهية . وعندئذ . تختلط هذه الأحزاب ، وتتشابك فيما بينها . وهنا يذيق بعضها بأس بعض ، ومرارة الخصومة والحقد في نفوسها) أنظر : كيف نصرف الآيات، لعلهم يفقهون (والإنسان يجب أن يتأمل : — إلى أي مدى : ينوع الله جل شأنه في أمارات قوته وتفوقه على عباده : إن شاء في ضبط أعمالهم .: أو شاء في إيقاع العذاب بهم .: أو شاء في إنجائهم وتخليصهم : من الحيرات والشدائد .: كي يفقه هذه الآيات ويقر بنتائج ما يفهم . ونتائجها توصل حتما : إلى الإيمان بالله وحده)وكذب به قومك وهو الحق (والعذاب الذي يستطيع الله جلت قدرته أن يلحقه في صور متنوعة بالكافرين والمتحدين في كفرهم .: يكذب به قومك من

المكيين ، مع أن وعد الله به صدق وحق) قل : لست عليكم بوكيل (ولذا يجب أن تنذرهم : بأنه لا شأن لك بهم ، ساعة أن يقع عليهم العذاب ويحل بهم فى صورة ما . فلست أنت وكيلا عنهم ولا متحملا لمسئولية من مسئولياتهم) . لكل نبأ مستقر وسوف تعلمون (وما يخبر به الله — جل جلاله — هنا : من ربط العذاب بالكفر — وكذلك كل خبر يوحى به — هو أمر حتمى سيقع فى وقت ما ويستقر فيه : وسوف يعلمونه علم اليقين ، ساعة أن يتحقق ، ويعلمه كذلك كل من يخاطب بهذه الرسالة) :

وَإِذَا رَأَيْتَ الَّذِينَ يَخُوضُونَ فِي آيَاتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ الشَّيْطَانُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ الذِّكْرَىٰ مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٦٨﴾ وَمَا عَلَى الَّذِينَ يَتَّقُونَ مِنْ حِسَابِهِم مِّن شَيْءٍ وَلَٰكِن ذِكْرَىٰ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿٦٩﴾ وَذَرِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَهُمْ لَعِبًا وَلَهْوًا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا ۚ وَذَكِّرْ بِهِ أَن تُبْسَلَ نَفْسٌ بِمَا كَسَبَتْ لَيْسَ لَهَا مِن دُونِ اللَّهِ وَلِيٌّ وَلَا شَفِيعٌ وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لَّا يُؤْخَذْ مِنْهَا ۗ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ أُبْسِلُوا بِمَا كَسَبُوا ۖ لَهُمْ شَرَابٌ مِّنْ حَمِيمٍ وَعَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْفُرُونَ ﴿٧٠﴾

وينصح القرآن — فى هــذه السورة — رسوله صلى الله عليه وسلم باتباع مبدأين آخرين من مبادىء منهج الدعوة للحفاظ عليها .. والسير بها قدماً :

المبدأ الأول — أن لا يجلس فى مجلس — وكذلك كل مؤمن — وفى أى اجتماع يستهزىء فيه المجتمعون ، بالحق ، والقيم العليا : وبالروحية الإنسانية : فإذا وجد بالفعل فى مجلس تناول فيه المجتمعون هذه القيم العليا بالسخرية :: فعليه أن ينصرف — احتجاجاً — فور أن يتحقق من ذلك ، « وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا (أى يسخرون ويستهزئون مما جاء وحيا فى كتاب الله) فأعرض عنهم حتى يخوضوا فى حديث غيره (أى

فانصرف عنهم توا . ولا بأس بعد ذلك من مجالستهم ، لحظة ، أن تتأكد أن حديثهم قد تناول شيئاً آخر غير السخريه بالقرآن (وإما ينسينك الشيطان فـلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين (وإذا كنت جالسا بالفعل — مع أنهم يخوضون فى القرآن — ولم تنتبه لما يقولون .. فتو ، أن تتيقظ يجب عليك ، الانصراف من اجتماعهم . لأنهم ظالمون لأنفسهم ولغيرهم) . وما على الذين يتقون من حسابهم من شيء (والمؤمنون الذين من شأنهم ، أن يتقوا الله لايحملون وزر هؤلاء الساخرين من القرآن ، إذا جالسوهم وهم يتناولونه بالسخرية ، لأنه وزر الساخرين أنفسهم وحدهم) ولكن ذكرى لعلهم يتقون (أى ولكن يجب أن تذكرهم ، حتى يخشوا الله وحده . فكل إنسان هو مسئول عن تصرفه الخاص ، ولكن المؤمنين عليهم واجبان ، الواجب الأول ، حماية أنفسهم من عدوى الماديين الملحدين ، والواجب الثانى ، اعلانهم حق الله ، حتى ولو لم تكن الظروف غير مهيئة ، لأنه من الممكن أن يكون لإعلانهم تأثير إيجابى) » .

والمبدأ الثانى من مبادىء منهج الدعوة — كما جاء فى هذه السورة — أن يترك صاحب الدعوة عليه السلام ، وكذا كل مؤمن برسالته ، أولئكم الماديين المشركين الذين اتخذوا من دينهم وسيلة لدنياهم .. اتخذوه حرفة وصنعة يحصلون بها على متع الدنيا التى هى فى حقيقة أمرها ، لهو ، ولعب فى استمتاعهم بالدنيا .. وفى لهوهم ولعبهم ، على أن يعلنهم بهذه : الحقيقة وهى أن كل نفس تسلم نفسها للهلاك .. بعملها ، ولا تجد من يقيها الهلاك أويشفع لها ، سوى الله) ، « وذر الذين اتخذوا دينهم لعبا ولهوا وغرتهم الحياة الدنيا ، وذكر به ، أن تبسل نفس بما كسبت (أى تسلم نفسها للهلاك بسبب ما عملت) ليس لها من دون الله ، ولى ولا شفيع ، وإن تعدل كل عدل لا يؤخذ منها (ومهما قدمت من فداء تفدى به نفسها من الهلاك المنتظر لها ، فإنه لا يقبل منها بحال) أولئك الذين أبسلوا بما كسبوا ، لهم شراب من حميم ، وعذاب أليم بما كانوا يكفرون (وأولئكم

الذين أسلموا أنفسهم للهلاك — الماديون المشركون — بعملهم الخاص . .
نهاية أمرهم . أن يشربوا — عقابا لهم — ماء فى درجة الغليان ، وأن يعذبوا
عذابا أليما فى الآخرة . وذلك بسبب رفضهم للإيمان وعنادهم وإصرارهم على
التحدى والصد عن سبيل الله :

وهذان المبدآن وإن جاء بهما القرآن فى منهج الدعوة وفى توضيح
الموقف الذى يتخذه الرسول عليه السلام من خصومه الألداء : إلا أن
صلاحيتهما قائمة ، فى سياسة الأمة الإسلامية مع أعدائها : فليس من السياسة
الحكيمة حضور اجتماعات الأعداء التى يهزءون فيها بدين الأمة وتقاليدها
القائمة عليه . وإنما الحكمة كل الحكمة فى ترك هذه الاجتماعات وإعلان
الاحتجاج عليها ، وكذلك ليس من السياسه الحكيمة : التودد للأعداء
فى غير جدوى ، والتورط معهم فى احترافهم بالقيم العليا . والسياسة
الفضلى هى : تركهم وشأنهم ، وعدم وضعهم موضع الأمل فى شىء
ما ، ثم فى الاحتفاظ بشخصية الأمة وعدم الذوبان فى خطوط الإلحاد
التى هى موصلة حتما إلا الهلاك ، وعدم النجاح بحال ، مع اعلانهم
بحقيقة وضعهم ، ومصيره) .

قُلْ أَنَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا وَنُرَدُّ عَلَىٰٓ أَعْقَابِنَا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ كَٱلَّذِى ٱسْتَهْوَتْهُ ٱلشَّيَٰطِينُ فِى ٱلْأَرْضِ حَيْرَانَ لَهُۥٓ أَصْحَٰبٌ يَدْعُونَهُۥٓ إِلَى ٱلْهُدَى ٱئْتِنَا ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۖ وَأُمِرْنَا لِنُسْلِمَ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧١﴾ وَأَنْ أَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾

والآن يطلب القرآن — فى هذه السورة — إلى الرسول عليه السلام : أن
يواجه هؤلاء الماديين المكيين مواجهة أخرى صريحة فى تقييم عبادتهم
ومعبوداتهم ، ويعلن : أن الوثنيه والمادية هى : « رجعية » وارتداد إلى
الخلف وراء البشرية ، ووراء معالم الطريق للإنسانية : « قل : أندعوا من
دون الله ما لا ينفعنا ولا يضرنا ، ونرد على أعقابنا بعد إذ هدانا الله ؟ (أى

لسنا على استعداد اطلاقا أن نتنازل عما هدانا الله إليه من ملامح الطريق المستقيم للبشرية :: ونرجع الى الوراء :: إلى الوثنية المادية) كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران : له أصحاب يدعونه إلى الهدى : ائتنا ! (ويكون وضعنا عندئذ — لو رجعنا إلى المادية ، وتركنا هـــداية الله فى كتابه :: كوضع ذلك الحائر المضطرب :: التائه فى الضلال ، بسبب ما استولت عليه الشرور والأهواء ، وله أصدقاء ورفقة يدعونه إلى حل ينجيه من هذه الحيرة ولكنه لا يجيبهم لفرط ما وقع تحت تأثيره من اتجاه المادية). قل : إن هـــدى الله هو الهدى ، وأمرنا لنسلم لرب العالمين (ثم أعلنها صراحة أيضاً : أن الهداية سبيل واحدة :: هى سبيل الله :: وهى التى توصل إلى الطاعة الكاملة لرب الوجود كله :

وفيما يطلب إلى الرسول عليه السلام من إعلانه هنا : أن التمسك بهداية الله انتقال من التخلف اللا إنسانى :: إلى الطريق الإنسانى الواضح ، وأن التمسك بالمادية واتجاهاتها فى العقيدة والسلوك فى أى وقت وفى أى عهد ، هو : رجعية .. وارتداد :: ونكسة إلى الوراء :: إلى ما خلف معالم الإنسانية .. هو تحديد إلهى : لمعنى الرجعية .. والتقدمية ، وعلى العكس تماماً مما تزعمه المادية ، إن حل عهدها فى أطوار البشرية ، وطغى نفوذها على القلوب والعقول ، وأضحى لها :: منادون .. ومربون) . وأن أقيموا الصلاة واتقوه وهو الذى إليه تحشرون (أى كما أمرنا . أن نسلم له وجوهنا فى الصلاة .. وأن نستمر فى تقواه .. وأن نؤمن بيوم الحشر والجزاء . . أى أمرنا أن نكون على عبادة الله : . وأن لا نقترب من الوثنية والشرك والمادية أبداً) » .

* *

وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِٱلْحَقِّ ۖ وَيَوْمَ يَقُولُ كُن فَيَكُونُ ۚ قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ ۚ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ ۚ عَـٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَـٰدَةِ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ﴿٧٣﴾

وكما أن لله وحده يرجع البعث والتقاء الناس بعد موتهم . كذلك هو الخالق وحده للسموات والأرض ، طبقا لقوانين تحكمها فى نظام ورقة): «وهو الذى خلق السموات والأرض بالحق (أى فى نظام حكمه) ويوم يقول : كن فيكون (أى وحين يأمر يجاب .. لا راد لكلمته وأمره) قوله : الحق (أى ثابت لا يتغير) وله الملك يوم ينفخ فى الصور (وهو صاحب الإذن والسيادة لحظة إعلان الموتى ببعثهم وسوقهم إلى الجزاء) عالم الغيب والشهادة) ولا يغيب عن علمه شىء ما .. فعلمه شامل ومحيط لما بطن وظهر ... ولما غاب عن المخلوقات أو عرف لها) وهو الحكيم ، الخبير (ومع قدرته التى تتمثل : فى رجوع الناس إليه بعد موتهم :: وفى خلقه الوجود فى إحكام ونظام :: وفى سيادته على الخلق والإيجاد فيه :: وفى امتلاكه ناصية إعلام الخلق ببعثهم وجزائهم :: ومع علمه الشامل المحيط :: مع هذا ، وذاك . فإنه حكيم فى تدبيره ، وفى خلقه وإيجاده ، وفى تصريف قدرته :: وخبير بكل ما يقدره ويوجده) » .

★ ★

* وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّىٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِى ضَلَـٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٧٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ ﴿٧٥﴾ فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَـٰذَا رَبِّى فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَـٰذَا رَبِّى هَـٰذَآ أَكْبَرُ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَـٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾ وَحَآجَّهُۥ قَوْمُهُۥ قَالَ أَتُحَـٰٓجُّوٓنِّى فِى ٱللَّهِ وَقَدْ هَدَىٰنِ وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ﴿٨٠﴾ وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَـٰنًا فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٨١﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَـٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ ﴿٨٢﴾ وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَـٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿٨٣﴾

ولكى يؤكد القرآن — فى هذه السورة — تطمين الرسول عليه الصلاة والسلام ، على نجاح دعوته ، رغم معارضة المشركين المادين المكيين ، ورغم إصرارهم على العناد فيها ، على نحو ما عرضت الآيات السابقة .. أراد أن يذكره عليه السلام بقصة إبراهيم ، صاحب البيت العتيق بمكة ، ورافع قواعده مع ولده إسماعيل ، والذى عهد إليه ربه فى رسالته بتطهير هذا البيت — ومعه إسماعيل أيضاً — من الشرك والوثنية : « وعهدنا إلى إبراهيم وإسماعيل : أن طهرا بيتى للطائفين ، والعاكفين ، والركع السجود » . وفى التذكير بقصة إبراهيم هناك عوامل مشتركة : أولا : أن مكان أحداث

الدعوة إلى الإسلام واحد ، على عهد إبراهيم عليه السلام .. وعلى عهده عليه السلام ، وهو مكة . وثانياً — أن رسالتهما فى أولى مراحلها واحدة ، وهى ، تطهير بيت الله بمكة من المادية الطاغية ، وإفساح المكان للروحية الإنسانيه التى تمثلها الرسالة الإلهية الحقة ، وهى رسالة إبراهيم ومحمد ، عليهما السلام . ثالثاً — صلة القرابة فى سلسلة النسب وهى أن محمداً عليه السلام من ولد إسماعيل — وليس من ولد يعقوب — بن إبراهيم ، عليهم جميعاً صلوات الله وسلامه . فهذه العوامل المشتركة الثلاثة كفيلة الآن بتطمينه عليه السلام ، وبفتح باب الأمل القوى أمامه : فى الظفر على هؤلاء المشركين الماديين ، كما ظفر من قبل : إبراهيم على آبائهم الأولين ، وأمثالهم : فى إنكار الله .. واليوم الآخر .. وعبادة ما لا يضر ولا ينفع .

وفى تذكير القرآن — فى هذه السورة — رسوله : محمداً عليه السلام بقصة إبراهيم .. ليريه نمط المحاورة التى جرت بينه وبين أعداء الله من الماديين . وفى هذه المحاورة يتجلى منطق الإنسان فى جانب إبراهيم ، كما يتجلى هذا المنطق فى جانب الرسول فى محاجته للماديين فى عهده بمكة . ووضوح المنطق الإنسانى فى جانب الدعوة إلى الوحدة فى الألوهية — سواء على عهد إبراهيم .. أو على عهد محمد ، عليهما السلام — يميز دعوة الحق بأنها دعوة الإنسانية ، إذ بعدت عن الأهواء ، والوقوع تحت تأثير شهوات المنافع المادية .. والزعامات .

وتبتدىء القصة ببداية الحوار مع الماديين : « وإذ قال إبراهيم لأبيه : آزر (آزر هو اسم لوالد إبراهيم) . أتتخذ أصناماً آلهة ؟ إنى أراك وقومك فى ضلال مبين (فينكر إبراهيم على أبيه وقومه .. أن يشركوا أصناماً لا تنفع ولا تضر ، مع الله فى العبادة . والشرك فى العبادة مع الله — سواء أكان الشريك صنما .. أو كائنا طبيعيا ما .. أو الإنسان .. أو مصنوع الإنسان : كالدولة والمجتمع — آية على الضلال والاستغراق

في التردد والحيرة) وكذلك : نرى إبراهيم ملكوت السموات والأرض وليكون من الموقنين (وهكذا : شاء الله أن يوقف إبراهيم على قوانين السموات والأرض فى حركاتها ، وصلة بعضها بعضاً ، حتى يكون موقفه فى التحاج موقف الموقن .. والمتأكد مما يحاج به . إذ الوقوف على قوانين الكواكب فى حركاتها أدعى إلى النجاح مع قوم يعبدون هذه الكواكب ويتجهون إليها بالتقديس . وقد كان قوم إبراهيم من عبدتها) : فلما جن عليه الليل رأى كوكبا ، قال : هذا ربى ، فلما أفل ، قال : لاأحب الآفلين (ومسلك إبراهيم فى الحوار هنا : مسلك المتدرج ، الذى يريد أن يساير خصمه أولا فى الاعتقاد ، ليدحض بعد قليل اعتقاده : فقد ساير إبراهيم قومه فى وصف النجم الذى رآه بالليل .. بأنه « ربه » مع أنه كان مبرءاً من عبادة الكواكب وتقديسها على الإطلاق منذ صغره . ولكن لينتقل بعدذلك إلى نفى الربوبية عنه ، حيث إنه يغرب ويختفى . وشأن من يوصف بالربوبية أن يكون ثابتاً . إذ الثبات على حال واحدة عنصر من عناصر الكمال فى الموجود) فلما رأى القمر (وهو أكبر حجماً من النجم) بازغا قال : هذا ربى ، فلما أفل (أى غاب واختفى ، وهو لا يحب الآفلين الذين يختفون بعد ظهور . ويتغيرون من وضع إلى وضع : أنكر ربوبيته ، ثانية ، مع أنه أكبر حجماً من النجم . وهنا — بعد بزوغ القمر واختفائه — ابتدأت الحيرة تساوره) قال : لئن لم يهدنى ربى لأكونن من الضالين (أى الآن بعدما وقفت على وضع كل من النجم .. والقمر ، وخدعنى الوضع الأول لكل منهما وهو وضع الظهور فاعترفت بربوبيتهما — ثم أيقظنى الوضع الثانى لهما وهو وضع الاختفاء فأنكرت ألوهيتهما .. الآن بعد هذا أصبحت فى حيرة ثم فى حاجة إلى هداية الله وحده) فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربى : هذا أكبر (أى أكبر فى ربوبيته لأنها أكبر حجما من النجم والقمر) فلما أفلت قال : يا قوم : إنى برىء مما تشركون (وهكذا : أعلن إبراهيم اعتقاده فى الكواكب عندما رأى النجم .. ثم تردد فى الاعتقاد عندما وقف على حالى القمر .. ثم أنكره فى صورة مؤكدة بعد ما علم من شأن الشمس : وهذا أسلوب تدريجى

تعليمى فى الاقناع يوجه لمن اعتقد أولا بالوراثة أو التلقين .. هو أسلوب كفيل بلفت النظر إلى ما فى الاعتقاد من خلخلة وضعف) إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً ، وما أنا من المشركين (وعلى أثر إنكاره الشرك والاعتقاد فى الكواكب — كما يعتقد قومه — أعلن إيمانه بالله وحده ، الذى خلق الأرض والسموات وما فيها من كواكب ..إيماناخالصاً له . ثم أردف إعلانه الإيمان بالله تأكيداً له : إنكاره الشرك مرة أخرى) وحاجه قومه (أى خاصموه وراجعوه فى حجته التى اعتمد عليها فأعلن : إيمانه بالله وحده . . وإنكاره الشرك به) قال : أتحاجونى فى الله وقد هدان ؟ (أى : أتراجعوننى فى إيمانى بالله وقد أخرجنى من حيرتى التى واتتنى بسبب ما رأيت من آحوال الكواكب التى اتخذتموها أنداداً لله ، وهدانى الآن إلى الإيمان به ؟ . إنه لا يحق لكم أن تلزموننى بالضلال والحيرة) ولا أخاف ما تشركون به ، إلا أن يشاء ربى شيئاً (ثم من جهة أخرى : أنا لا أرهب شركاءكم ولا أخشى منهم شيئاً . فإن حصل لى ضر فذلك يرجع إلى مشيئة الله .. وليس الى أثر شركائكم) وسع ربى كل شىء علماً ، أفلا تتذكرون ؟ (وعلم ربى علم محيط شامل : فهو يعلم حقيقة ما تشركون به .. ويعلم أنها لا توصل ضراً ولا نفعاً إلى أحد ويعلم ضلالكم وهدايتى . أفلا تراجعون أنفسكم بعد ذلك فيما تعتقدون . . ألا تهتدون بهداية الله وتتركون ما أنتم عليه من اعتقاد فاسد وضال ؟ راجعوا أنفسكم قبل أن يفوت الأوان ..وتذكروا ما أنتم عليه وما أنتم فيه) وكيف أخاف ما أشركتم ، ولا تخافون : أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به عليكم سلطاناً ؟ (وأنا كيف أبيح لنفسى أن يساورنى الخوف من آلهتكم التى لا تنفع ولا تضر ، وأنتم لا تخافون الله القادر .. الخالق . . الذى يعلم كل شىء ، عندما أشركتم به : عديم القيمة والأثر ؟) فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون ؟ (أى : أى طرف منا : ينبغى له أن يكون مطمئنا وآمنا على مسلكه واتجاهه فى الإيمان والاعتقاد. إن كنتم تعلمون حقيقة : ماتعتقدون وتؤلهون .. وحقيقة ما أومن أنا به وأألهه ؟) الذين آمنو ولم يلبسوا

إيمانهم بظلم أولئك لهم الأمن وهم مهتدون (فإذا كنتم لا تريدون ان تقروا بالطرف الآمن المطمئن منا فى اتجاهه ومسلكه .. فاعلموا : أن هذا الطرف هو طرف المؤمنين بالله وحده ، الذين لم يخلطوا إيمانهم بالله بظلم لأنفسهم ولغيرهم . الذين انصرفوا كلية : عن الشرك فى الاعتقاد وعن المشركين فى السلوك .. عن المادية وسبلها .. إلى الروحية الإنسانية فى رسالة الله. هؤلاء هم الآمنون حقاً .. وهم المهتدون كذلك : فيما يعتقدون ، وفيما يسلكون). وتلك حجتنا آتيناها إبراهيم على قومه (أى ما ذكر هنا من دليل الإقناع بالإيمان بالله وحده .. والابتعاد عن الشرك .. وما ذكر هنا من الرد على مخاصمة قومه .. هذا ، وذاك يكون عناصر الحجة والأمارة التى خص الله بها إبراهيم .. دليلا على رسالته فى قومه وإصطفائه لها) نرفع درجات من نشاء ، إن ربك حكيم عليم (وهذه الأمارة التى خص بها إبراهيم هى من فضل الله عليه ، كى يرفع بها درجته فى البشرية إلى مستوى الرسالة : والله وحده هو الذى يرفع من يشاء . وفى اختياره لمن يرفع درجته يعلم أحقيته لفضله ، ووفق حكمته فى تقديره) :

* *

﴿ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ إِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ ۚ كُلًّا هَدَيْنَا ۚ وَنُوحًا هَدَيْنَا مِن قَبْلُ ۖ وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّا وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَٰعِيلَ وَٱلْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ ءَابَآئِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَإِخْوَٰنِهِمْ ۖ وَٱجْتَبَيْنَٰهُمْ وَهَدَيْنَٰهُمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى ٱللَّهِ يَهْدِى بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۚ وَلَوْ أَشْرَكُوا۟ لَحَبِطَ عَنْهُم مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٨٨﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْ ۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا ۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾

ثم تستطرد قصة إبراهيم فتذكر أنه لم ينتصر بإيمانه بالله وحده على قومه من عبدة الكواكب فقط .. وإنما كانت له وراثة فى دعوته ورسالته ، من ذريته من بعده . وعددت ثمانية عشر من أبنائه وأحفاده : اصطفاهم الله واختارهم للرسالة . وأصبحوا علما للهداية فى الأديان الثلاثة : اليهودية .. والمسيحة .. والإسلام . ويلاحظ فى ذكر القرآن لهذه الرسل : أنه ذكرهم فى أربع مجموعات :

المجموعة الأولى – إبراهيم .. وإبنه إسحاق .. وابن إسحاق : يعقوب

والمجموعة الثانية – تتكون من رسل لهم عزم وحول : نوح وقت الطوفان (وهو قبل إبراهيم) .. وسليمان مؤسس المملكة اليهودية .. وأيوب وقد عاش مائة وأربعين عاما .. ويوسف وكان وزير دولة فى مصر .. وموسى وهارون ، وقد قادا خروج بنى إسرائيل من مصر .

والمجموعة الثالثة ــ تكونت من وعاظ ومرشدين : زكريا .. ويحيى ولده .. وعيسى .. والياس ، وقد كان معلما لعيسى .

والمجموعة الرابعة ــ وقد فضلت فى الشعوب كلها واصطدمت بأقوامهم : إسماعيل ، وهو أكبر أبناء إبراهيم ومؤسس الأمة العربية . . واليسع ــ ويونس .. ولوط : « ووهبنا له (أى لإبراهيم) : إسحاق ، ويعقوب كلا هدينا (أى وجهناهم الثلاثة للهداية : إبراهيم .. وإسحاق .. ويعقوب وهو ولد إسحاق) ونوحا هدينا من قبل (أى من قبل إبراهيم) ومن ذريته (أى ذرية إبراهيم) : داود ، وسليمان ، وأيوب ، ويوسف ، وموسى ، وهارون ، وكذلك نجزى المحسنين (أى وعلى هذا النحو من الهداية والاصطفاء للرسالة نجزى من أحسن فى سلوكه وإيمانه) وزكريا ، ويحيى ، وعيسى ، والياس ، كل من الصالحين (أى وجميعهم ممن استقامت طريقتهم فى الحياة ، ولم ينحرفوا عن جادتها) وإسماعيل ، واليسع ، ويونس ولوطا ، وكلا فضلنا على العالمين . ومن آبائهم ، وذرياتهم وإخوانهم (أى ومن آباء هؤلاء الرسل .. وإخوانهم .. وذرياتهم) واجتبيناهم وهديناهم إلى صراط مستقيم (واجتبيناهم أى اخترناهم للرسالة). ذلك هدى الله يهدى به من يشاء من عباده (أى وهذا الاختيار للرسالة من هدى الله وفضله) ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون (أى ولو أنهم لم يوفقوا للإيمان بالله وحده ، ولم يتركوا الشرك والوثنية ، وبقوا على عبادتهم للأوثان والأصنام .. لكان شأنهم اليوم شأن غيرهم من قومهم : ممن أشركوا .. ولبطل كل عمل صالح لهم مع شركهم ، أى لرد اعتباره ولم يؤخذ به . لأنه جاء على فساد الأصل فى العقيدة ، وهو الشرك) . أولئك الذين آتيناهم الكتاب ، والحكم والنبوة (أى وهؤلاء الرسل المصطفون هنا : أنعم الله عليهم بالكتاب ، وهو الرسالة التى أرسل بها كل منهم إلى قومه .: والحكم وهو السلطة والنبوة وهى الرسالة) فإن يكفر بها هؤلاء (أى فإن يكفر ــ بعد ذلك ــ هؤلاء المكيون بالرسالة التى اصطفيت لها من قبل الله ... أى

استمروا فى الكفر بها وفى معارضتها) فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها بكافرين (عندئذ سيتكفل بها أناس آخرون من قريش وغير قريش.. سيؤمنون بها ويتولون شأنها ، وهم أتباع رسالتك اليوم . . وغداً) أولئك (أى وهؤلاء الرسل السابقون) الذين هدى الله (وفقهم للهداية وأصبحوا نماذج للإيمان فى تاريخ البشرية) فبهداهم اقتده (فاتخذ منهم قدوة : فى الحرص على الإيمان بالله . . والصبر على مشاق الدعوة إليه .. وترقب النصر فى النهاية ، مهما بدت لحظات من اليأس ، ومهما تضاعفت موجات السخرية والادعاءات الباطلة ضدك وضد دعوتك) قل : لا أسألكم عليه أجراً ، إن هو إلا ذكرى للعالمين (وفى الوقت الذى تتخذ فيه — أيها الرسول صلوات الله عليك — هؤلاء الرسل السابقين : قدوة لك فى الهداية ، قل لمن أرسلت إليهم بالقرآن : إنك لا تبغى أجراً من أحد على دعوتك إليه ، وليس القرآن إلا مصدر ذكرى للناس جميعاً .. إلا مصدر تنبيه على رسالة الله للناس)» .

***

وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦٓ إِذْ قَالُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَىٰ بَشَرٍ مِّن شَىْءٍ ۗ قُلْ مَنْ أَنزَلَ ٱلْكِتَـٰبَ ٱلَّذِى جَآءَ بِهِۦ مُوسَىٰ نُورًا وَهُدًى لِّلنَّاسِ ۖ تَجْعَلُونَهُۥ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا ۖ وَعُلِّمْتُم مَّا لَمْ تَعْلَمُوٓا۟ أَنتُمْ وَلَآ ءَابَآؤُكُمْ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۖ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ ﴿٩١﴾

تنتقل سورة الأنعام الآن إلى عرض بعض مزاعم المكيين الماديين الأخرى : فى شأن رفضهم لرسالة الرسول صلى الله عليه وسلم . فيزعمون : أن البشر لا يرسلون من قبل الله . وقد تكرر زعمهم هذا فى سور عديدة أخرى . فقد جاء فى سورة الفرقان قول الله تعالى ، حكاية عنهم : « **وقال الذين لا يرجعون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة (أى بدل البشر) أو نرى**

ربنا ؟ لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتواً كبيراً »(١) . كما جاء فى سورة الإسراء قول المولى تبارك وتعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا »(٢) . . فقضية أن الرسول بشر كانت تحول – فى زعمهم – بين إيمانهم برسالته : لأنه قد غلب على منطقهم الحقد . والحقد خصيصة نفسية لأصحاب الاتجاه المادى . فالمكيون الماديون – والقرشيون منهم بوجه خاص – امتلأت نفوسهم حقداً على رسول الله محمد بن عبد الله بسبب رسالته . لأنهم توقعوا له شأناً عظيما فى المجتمع البشرى فى شبه الجزيرة – ثم فى تاريخ الإنسانية كلها – يفوق شأن الزعماء فيهم ، وقد كان فقيراً مغموراً بينهم . وعن هذا الحقد أنكروا رسالته بسبب : أنه بشر ، أى أنه غير متميز عنهم فى طبيعته . وليس هناك فى الوجود إلا طبيعة الملك التى تختلف عن طبيعة الإنسان .

وقد نقل القرآن عن زعمهم هنا فى هذه السورة قول الله تعالى : وما قدروا الله حق قدره (أى ما أنزلوه منزلته الحقيقية : فى القدرة . والحكمة . والعلم) . إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شىء (أى عندما ادعوا : أن الله لا يرسل بشراً برسالة له إلى الناس) قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى (ثم اتجهت الآية هنا لتوضيح زعم المكيين الماديين : أنه اختلاق يكشفه الواقع ، اتجاهاً آخر غير ما اتجه إليه القرآن فى آيات أخرى فذكرت ذلك فى صيغة استفهام إنكارى – والاستفهام الإنكارى أبلغ فى النفى وآكد : أذكر لهم أيها الرسول صلوات الله عليك – واسألهم : من الذى أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ؟ فهناك فى الواقع كتاب أنزل من قبل الله وهو التوراة . . وأن موسى كلف بتبليغه ، وبالدعوة إليه . وموسى بشر . . والكتاب كتاب الله . وإذن : إرسال البشر من قبل الله بكتاب إلى الناس .. حقيقة تاريخية وقعت .. وزعم المكيين الماديين لذلك . بأن الله لا يرسل بشراً إلى الناس زعم باطل . والمكيون الماديون

---

(١) الفرقان ، ٢٠ (٢) الاسراء ، ٩٤

كانوا يعرفون بموسى وبالتوراة عن طريق اليهود فى المدينة . ولذا زعموا من أجل معرفتهم باليهود وبالتوراة . زعما آخر ستقصه هذه السورة فيما بعد فيما يقوله الله تعالى : « أو تقولوا : لو أنا أنزل علينا الكتاب (والمقصود بالكتاب هنا هو التوراة) لكنا أهدى منهم (أى من اليهود) فقد جاءكم بينة من ربكم وهدى ورحمة (يعنى . القرآن)(١) .. واتجاه القرآن لنفى هذا الزعم فى آيات أخرى — غير آية الأنعام هذه — يحكيه قول الله تعالى فى سورة الإسراء : « قل : لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا »(٢) . . عقب ادعائهم فى هذه السورة أيضاً : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشرا رسولا » . . ويحكيه قوله تعالى كذلك فى سورة الفرقان : يوم يرون الملائكة لابشرى يومئذ للمجرمين ، ويقولون حجراً محجوراً»(٣) . . تعقيبا على زعمهم : « وقال الذين لا يرجون لقاءنا : لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا ، لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتــوا كبيراً ») نوراً وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس تبدونها ، وتخفون كثيراً (أى هذا الكتاب الذى جاء به موسى — وهو التوراة — تبصرة وهداية للناس . ولكنه خرج الآن عن صلاحيته للهداية بفعل اليهود فيه . إذ جزأوه إلى أجزاء ، وقسموه إلى صحف متفرقة ، يظهرون منها بعضها وهو ما يمثل التوراة اليوم ، ويخفون البعض الآخر منها حرصا على استقلالهم بالزعامة الدينية فى العالم . فتوراة اليوم لا تصور حقا ما جاء به موسى من عند الله . وتقسيم التوراة إلى صحف وأوراق منثورة . . أو إلى أجزاء . . لا يعنى به سوى : أنه قد وقع فيها تحريف . ولذا لم تعد لها صلاحية الرسالة الالهية . . ومن ثم كان هناك فراغ فى الرسالة الإلهية شغله القرآن ، بعد القديم ، والجديد : مما لأهل الكتاب). وقوله تعالى : « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » . . يتجه به القرآن إلى اليهود أنفسهم ، كجملة معترضة بين

---

(١) الانعام ، ١٥٧ (٢) الاسراء ، ٩٥

(٣) الفرقان ، ٢٢

السؤال فى الآية الذى هو : من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى ؟ : ..
وجوابه فيها ، وهو قوله : « قل : الله » وجاءت هذه الجملة لتبرز : فعل
اليهود بالنسبة لكتاب الله الذى جاء به موسى ، وأنه من أجل ما فعل به
من تصحيف : لم يعد له النور ، والهداية ، التى صحبته عندما بلغه موسى
إليهم) وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم (وعن طريق التوراة تعلمتم أيها
اليهود فى أجيالكم المختلفة مما فى رسالة الله .. ما لم تعلموه من قبل . ولكن
سلوككم مسلك التحريف فيها جعلكم أنتم كذلك .. غير أمناء على ما لله
فى رسالته : فلم تعودوا أنتم صالحون لأمانة الرسالة . ولم يعد ما بأيديكم من
كتاب اليوم — صالحا كذلك لمضمونها) قل : الله ، ثم ذرهم فى خوضهم
يلعبون (أى قل — أيها الرسول عليك السلام فى مواجهة المكيين —
ان الله هو الذى أنزل الكتاب على موسى . فأنزله على بشر . ولذا :
رسالة الرسل من البشر إلى الناس أمر حقيقى وواقعى . وسجل بذلك على
كفار قريش من الماديين بمكة . . افتراءهم واختلاقهم . بأن الله لا يرسل
بشراً ، بغية معارضتك وتحدى رسالتك . وبعد أن تسجل عليهم كذبهم
اتركهم وشأنهم فيما يدعون ويزعمون ، لاهين ولا عبين . وادفع بدعوتك
إلى الأمام ، دون أن يكون هناك أثر نفسى لما يتقولونه . عليك . .
وعلى دعوتك) » .

* * *

وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا ۚ وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَهُمْ عَلَىٰ صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ ﴿٩٢﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ وَمَن قَالَ سَأُنزِلُ مِثْلَ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ فِى غَمَرَٰتِ ٱلْمَوْتِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ بَاسِطُوٓا۟ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوٓا۟ أَنفُسَكُمُ ۖ ٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَكُنتُمْ عَنْ ءَايَٰتِهِۦ تَسْتَكْبِرُونَ ﴿٩٣﴾

وحاجة البشرية الآن ــ بعد تحريف التوراة من جانب ، وعدم أمانة من يحملونها من جانب آخر ــ إلى كتاب من عند الله مصون عن التحريف هي حاجة ماسة : « وهذا كتاب أنزلناه (والقرآن هو ذلك الكتاب الذى أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم ، ومصون عن التحريف) مبارك ، مصدق الذى بين يديه (ولذا : هو مبارك فى هدايته للبشرية ، وفى الوقت نفسه مؤيد لتلك الرسالة التى سبقته ، وهى رسالة موسى ، قبل أن تصحف وتحرف) ولتنذر أم القرى ومن حولها (وليكن أول ما تفعله ــ أيها الرسول عليك صلوات الله ــ إزاء دعوته : أن تحذر به المكيين الماديين فى مكة ، موطن رسالة إبراهيم عليه السلام ، وكذلك المقيمين حولها ، حتى تعيد إلى بيت الله فيها : طهارته من رجس الوثنية المادية . وتكليف الرسول عليه السلام بتحذير المكيين برسالة القرآن ، لا يعنى : قصر دعوته عليهم كما يحاول بعض المشوهين لرسالته أن يصوروها . وإنما يعنى فحسب : أن تكون البداية فى مكة ، كشأنها فى تاريخ الرسالة الإلهية على عهد إبراهيم .. وولده إسماعيل . ولذا كان فتح مكة نصراً لدعوة القرآن ، لأن به تمت المرحلة الأولى من رسالته ، وهى تطهير بيت الله الحرام من رجس الخرافة ، وفساد المادية ، وعبث الشرك . وأصبح بذلك مكان الدعوة القرآنية آمناً مطمئناً ، ترسل منه أشعتها فى كل مكان آخر : بعيد .. أو قريب) والذين

يؤمنون بالآخرة يؤمنون به (ويقصد بهؤلاء : أهل الكتاب لأنهم يؤمنون بالبعث والجزاء الأخروى حتما ، وإن كانوا لا يؤمنون بالقرآن ، ولكن وضعهم من الإيمان بالآخرة يقربهم من الإيمان بالقرآن : لأنه طالما كان القرآن مصدقاً ومؤيداً لرسالة موسى — قبل تصحيفها :: فليس هناك من داع لدى أهل الكتاب جميعا : لعدم الإيمان بالقرآن) وهم على صلاتهم يحافظون (وكما هم قريبون من الإيمان به . . هم يحافظون على صلاتهم كذلك ، كتعبير عن استقرارهم فى الإيمان والإخلاص فيه) . ومن أظلم ممن افترى على الله كذباً، أو قال : أوحى إلى ولم يوح إليه شىء ومن قال : سأنزل مثل ما أنزل الله (وإذا كان أهل الكتاب جميعاً قريبين من الإيمان بالقرآن ، لأنهم يؤمنون باليوم الآخر .. فأبعد الناس عنه وأكثرهم ظلما واعتداء على أنفسهم وعلى غيرهم : أولئك الماديون المشركون . لأنهـم لا يؤمنون باليوم الآخر . ولذا يعد إيمانهم بالله . وكانوا أكثر ظلما بين الناس ، لأن منهم من يجرؤ على الاختلاق والكذب على الله فى أية صورة . ومنهم من يدعى : أنه أوحى إليه من قبل الله شىء ، رغم أنه لم يوح إليه شىء ما ، خداعا للناس وإيهاما لهم بالباطل أنه على صلة بالله ، أو استهزاء بالله .. ومنهم من يزعم قدرته على أن يأتى بكتاب يساوق القرآن ، كتاب الله ، تبجحا وتضليلا . وهذه الأنواع الثلاثة من أصناف المشركين الماديين ليست قاصرة على الوثنيين بمكة على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام ، وإنما هى تتكرر ، طالما كان هناك اتجاه مادى سائد .. وكانت هناك جاهلية فى أى وقت .. وليس بلازم كذلك أن تتكرر بالصيغة نفسها) ولو ترى إذ الظالمون فى غمرات الموت والملائكة باسطوا أيديهم : أخرجوا أنفسكم (إن أخوف ما يخافه المادى : هى تلك اللحظة التى تقترب فيها نهاية حياته . إذ هو بحكم اتجاهه المادى وتشبثه بالحياة الدنيوية يحرص كل الحرص على طول الاستمتاع بها . فإذا اقترب أجله لم يكن له ما يؤمله فى حياة أخرى . وإنما كل أمله قد انتهى الآن . وعندئذ تشتد حيرته لحظة خروج روحه من بدنه . وهذه اللحظه تمثل — من أجل ذلك — أقسى لحظة فى حياته

وتعتبر عذابا شديداً له . إذ المؤمن بالله واليوم الآخر ، فى مقابله : يفرح بلقاء الله ولا يحزن وقت الموت ، ولا يخشاه أبدا . ولذلك يعتبر الموت بالنسبة له .. حالة انتقال : من وضع .. إلى وضع آخر خير منه . والآية هنا تصور قسوة هذه اللحظة — وهى لحظة الموت — على المادى فى حياته : الملحد فى إيمانه واعتقاده تصويرا حسيا . فهى تقول للرسول عليه السلام : لو رأيت هؤلاء الماديين الظالمين لأنفسهم بالكفر — وهم فى لحظة الموت ، والملائكة ينادون بخروج أرواحهم من أبدانهم — لرأيتهم وهم فى حزن .. وفى شدة وحيرة . ومن قسوة ذلك عليهم يعتبر هذا الوضع عذاباً لهم قبل يوم الجزاء . فالملائكة من حولهم باسطو أيديهم ، حثاً لهم : على أن تفارق الأرواح أبدانها ، كى لا تطول حياتهم فى الدنيا لحظة واحدة كما يؤملون هم . وهذا كناية عن سرعة قطع الأمل عليهم فى الدنيا وفى ذلك تضعيف لقسوة الموت ووقعه عليهم) اليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تقولون على الله ، غير الحق ، وكنتم عن آياته تستكبرون (وكما يحث الملائكة على خروج أرواحهم من أبدانهم .. فإنهم يقولون لهم : إن ما أنتم فيه من شدة الخوف والحزن ، لحظة انتهاء أجلكم فى هذه الحياة الدنيـا .. هو جزاء الهوان والسخرية ، يصيبكم بسبب ما اختلقتم على الله كذباً فى صفاته ، وبسبب ترفعكم عن هداية الله وعدم الطاعة لها .. هو بسبب ماديتكم ووثنيتكم وشرككم بالله) » .

وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَىٰ كَمَا خَلَقْنَٰكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُم مَّا خَوَّلْنَٰكُمْ وَرَآءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَىٰ مَعَكُمْ شُفَعَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَٰٓؤُا۟ لَقَد تَّقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُم مَّا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ ﴿٩٤﴾

وبعد أن تخرج الأرواح من الأبدان أصبحت فى عزلة عنها وقطعت صلتها بما فى الدنيا تماما ، وتذهب عندئذ فرادى إلى الله يوم الجزاء ، كما خلقها أول مرة ، من قبل أن يتصل بها شىء مادى : من طين أو ماء مهين

وتترك بالتالى ما كان لها فى الحياة الدنيا من : مال .. وعصبية .. وما كانت ترى فيه شفيعاً لها مما اتخذته من دون الله شركاء .. هى وحدها ولا شىء آخر معها ، سوى عملها : « ولقد جئتمونا فرادى (أى فى انفصال تام عما كان لكم فى الدنيا) كما خلقناكم أول مرة (أى على نحو ما كنتم عليه قبل أن تتصل أرواحكم بأبدانكم وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم (وكذلك تأتون إلى خالقكم تاركين وراءكم فى الدنيا كل ما كان لكم من : ملك .. وسطوة .. وجاه .. وقوة وعصبية .. كما تجردتم من أبدانكم) وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم : أنهم فيكم شركاء (ويقال لهم أيضا على سبيل السخرية بهم وبشركائهم : إنه لا يوجد معكم ما كنتم تعبدون من دون الله : شركاء وشفعاء . أى يأتون إلى الله وليس معهم هؤلاء الشفعاء .. كما تركوا أملاكهم وما كان لهم فى الدنيا . . وكما انفصلوا عن أبدانهم) لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون (والآن انقطعت صلتكم بالدنيا ، وذهبت عنكم الأوهام فى اعتقادكم .. وأصبحتم فى تجرد تام وعزلة تامة .. وعدتم إلى خالقكم : أرواحا فقط ، تحمل كل روح معها عملها : فكل ما كنتم تعتزون به قد ذهب .. وكل ما يمكنكم من السخرية بدين الله ولى ، حتى طاقتكم البشرية على التفكير والنطق .. وكل ما كنتم تستمتعون به بأبدانكم قد انتهى . . وكل ما كنتم تؤملون فيه الشفاعة والنصرة : قد ضل وبعد .. فأنتم الآن وحدكم مجردين من كل شىء .

وتصوير وضع هؤلاء الماديين على هذا النحو — فى حال الموت .. وبعد الموت — من شأنه أن يثير التردد فى نفوسهم . . وقد يدفعهم إلى مراجعة موقفهم من قضية الكفر والإيمان . فطالما يكونون وحدهم ، مع عملهم فقط : فالأولى لهم أن يكون عملهم هو المرتكز الذى يرتكزون عليه يوم الجزاء .. وفى الآخرة . ولا يكون عملهم الخاص مرتكزاً لهم ، إلا إذا قام على الإيمان بالله وحده أولا) » .

**

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ ۖ يُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ ٱلْمَيِّتِ مِنَ ٱلْحَىِّ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَأَنَّىٰ تُؤْفَكُونَ ﴿٩٥﴾ فَالِقُ ٱلْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ ٱلَّيْلَ سَكَنًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ حُسْبَانًا ۚ ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ ٱلْعَزِيزِ ٱلْعَلِيمِ ﴿٩٦﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهْتَدُوا۟ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٩٧﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ﴿٩٨﴾ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ نَبَاتَ كُلِّ شَىْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ ٱلنَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّٰتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَٰبِهٍ ۗ ٱنظُرُوٓا۟ إِلَىٰ ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَيَنْعِهِۦٓ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكُمْ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٩٩﴾

يعاود القرآن — فى هذه السورة — مرة أخرى : التدليل على وحدانية الله فى مواجهة شرك الماديين الوثنيين بمكة ، ويذكر أربعة أنواع من الأدلة :

الدليل الأول : أنه خلق الشىء من نقيضه : خلق الحى من الميت أو العدم .. وخلق الميت من الحى : « إن الله فالق الحب ، والنوى (أى شاق كل منهما بإخراج النامى وهو النبات منهما . والحب وهو بذور البقول أو الغلال .. والنوى وهو أصل النخيل ، كل منهما جاف وميت ، ومع ذلك يخرج منهما .. الحى النامى بإذن الله) يخرج الحى من الميت (أى على نحو ما يخرج النبات من الحب والنوى هنا .. أو على نحو ما يخرج الحيوان من النطف والبيض) ومخرج الميت من الحى (أى كما يخرج : الحب .. والنوى .. والنطف .. والبيض من الحيوان .. والنامى : وكذلك إن تجاوزنا هذه الأشياء المادية إلى الزمان وفصول السنة : فانه

سبحانه يخرج من فصل الشتاء – وهو الميت – فصل الربيع وهو فصل الإحياء والبعث .. كما يخرج من جديد : فصل الشتاء من الربيع ، بعد الصيف فالخريف . وإذا تجاوزنا ذلك إلى المعنويات : فإنه هو الذى يقيم المجتمع المستقيم .. على أنقاض المجتمع الملحد المتمرد ... ويحول مجتمع الإيمان إلى مجتمع كفر وإلحاد . والوجود كله فى خلق الله قائم على أساس من هذا التناقض : بتحويل النقيض .. إلى نقيضة بإذن الله . ولذا كان العالم كله متغيراً . وتغيره دليل وحدة الله . لأن أى كائن يستحيل أن ينتقل من النقيض إلى نقيضه إلا بفضل الله وعونه . كما يستحيل أن يكون الله من جنس هذه الكائنات المتغيرة . فهو وحده فرد أحد) ذلكم الله ، فأنى تؤفكون (أى هذا هو الله فى خلقه وإيجاده ، فلماذا تنقلبون وتنصرفون عن الإيمان به ؟ إلا إذا كنتم لا ترون آثار خلقه وإيجاده ، فعميت قلوبكم وأبصاركم تحت تأثير الشرك والوثنية والمادية) :

والدليل الثانى أنه أحكم نظام الكواكب فى عالمه فى خدمة الإنسان .. فى معيشته على هذه الأرض « فالق الإصباح (فهو الذى شق ضياء النهار وأخرجه من ظلام الليل ليعمل فيه الإنسان) وجعل الليل سكنا (وهو الذى حول ضياء النهار إلى ظلام الليل ، ليهدأ الإنسان ويستجم فيه من مشقة العمل بالنهار) والشمس والقمر حسبانا (وهو الذى ربط الأوقات وحساب الأيام والسنين واللحظات بحركة الشمس والقمر) ذلك تقدير العزيز العليم (وذلك كله لا يكون إلا من سيد قادر تقصر كل قدرة دونها .. وإلا من عليم ، يعلم دقائق ماخلق) وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر (وهو الذى – مع ذلك – سخر النجوم ليهتدى الإنسان بها إذا ما سار بالليل فى ظلماته ، سواء أكان سيره على الأرض أو على البحر . وهكذا الكواكب فى أحجامها المختلفة نظمت من قبل الله لخدمة الإنسان فى أغراض عديدة) قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون (وبتعداد الغايات والأغراض من نظام الكواكب المحكم للعزيز العليم ..

وضح المولى جل شأنه تفصيلا لا لبس فيه لأولئكم الذين يدركون ظواهر الطبيعة ويدركون أثرها على الانسان فى حياته) .

والدليل الثالث : أنه خلق الإنسان فى دقته وفى سر ما انطوى عليه خلقه فى عالمه) : وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة (أى هو الذى خلقكم مع تنوعكم بين الذكورة والأنوثة .. ومع كثرتكم فى العدد التى لاتقف عند حد .. ومع اختلافكم فى العرق والعنصر .. ومع اختلافكم فى اللغة واللون .. مع هذا كله : فقد خلقكم من نفس واحدة . فكانت الوحدة مصدر الكثرة .. وكانت الوحدة مصدر الاختلاف والتنوع وهذا سر من أسرار الله الواحد، هذا هو سر الله فى خلقه الإنسان) فمستقر ومستودع (أى ولكن خلق الله للإنسان : ليعيش مؤقتاً فى هذه الحياة الدنيا ، ثم يرحل عنها بعد ذلك للآخرة .. أى خلقه لتكون حياته ذات مرحلتين : مرحلة مؤقتة وهى التى يقضيها فى الدنيا .. ومرحلة أخرى دائمة وهى التى يقضيها فى الحياة الثانية الأخروية . وإذن حياته الدنيوية مقدمة، وليست نهاية) قد فصلنا الآيات لقوم يفقهون (وهنا فى خلق الله للإنسان على هذا النحو : توضيح لأولئكم الذين تعودوا التفكير والفهم فى عمق . أى لايدرك خلق الله للإنسان عابر فى منطقه وسطحى فى نظرته إذ العميق فى فهمه وتفكيره ينظر إلى الدنيا على حقيقتها فلا يتشبث بمتعها ومفاتنها . ولذا يسارع إلى الإيمان بالله ، لأنه لاتقف الدنيا عندئذ عقبة فى سبيله . أما السطحى فى نظرته والعابر فى منطقه فلا يعى هدف توقيت الحياة فى هذه الدنيا . ولذا يصر عليها وعلى الإيمان بها وحدها . وبذلك ينكر الحياة الآخرة .. ثم ينكر الله بعد ذلك) .

والدليل الرابع : ما يتجلى فى عالم الرزق للإنسان من تنوع ، ومن مشتبه وغير متشابه « وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء) فأخرجنا منه خضراً (أى ليس يابساً وليس جافاً) نخرج منه حبا متراكبا (أى مركبا بعضه على بعض كسنابل القمح (ومن النخل من طلعها قنوان دانية ، وجنات من أعناب ، والزيتون ، والرمان مشتبها

وغير متشابه (أى مشتبهاً فى الشكل واللون والنوع ،ولكنه غير متشابه فى الطعم والمذاق ، أو فى الجودة والطيب) أنظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه (عندما ينضج . وما تشير إليه الآية هنا من أنواع الرزق للإنسان فى أصناف النباتات المختلفة .. لا تدل على سعة الرزق فحسب يختار منه الإنسان ما يشاء .. وإنما تدل أيضاً على بعدها عن كل خبيث يؤذى الانسان ويضره) إن فى ذلكم لآيات لقوم يؤمنون (أى إن فيما ذكر كله ، مما أشير إليه فى هذه الآيات من المبدأ الذى قام عليه خلق العالم ، وهو مبدأ النقيض .. ومن عالم الكواكب ونظامه .. وعالم الإنسان فى دقته وسره .. وعالم الرزق فى تنوعه واستيعابه .. إن فى ذلكم لأمارات على وحدة الله وتفرده فى الخلق والتدبير فى هذا الوجود ، ولكن لمن عنده استعداد للإيمان — وهو البعيد عن اتجاه المادية — أو لمن هو مؤمن فيزيده إيماناً) » .

* *

وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ﴿١٠٠﴾ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ ۚ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ ۖ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾ قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿١٠٤﴾ وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ ٱلْءَايَٰتِ وَلِيَقُولُوا۟ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُۥ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٥﴾

وهذا زعم آخر من مزاعم المكيين الماديين الذين يعددون فى الألوهية ويشركون مع الله فى العبادة مالا ينفع ولا يضر ، يواجهون به الرسول عليه

السلام .. وهو يتضمن شقين : الشق الأول : ادعاؤهم أن الجن شركاء لله فى علم الغيب . والشق الثانى : كذبهم على الله بأن له ولداً ، فقالوا : إن الملائكة بنات الله . وقد جاء الزعم الأول فيما يحكيه الله تعالى فى قوله « وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم (أى روجوا فيما بينهم أن الجن يعلمون الغيب ، ويسترقون سمعه عند حديث الله مع الملائكة فى السماء . والذى روج هذا الزعم هم الكهان وسدنة الكعبة على عهد الأصنام .. روجوه للاستغلال الدينى ، ولإقامة طبقية فى الدين فأعلا الطبقات فيه هى الجن .. تليها طبقة الكهان . . ثم عامة المشركين الوثنيين . وقد ردت الآية هنا على هذه الدعوى بقول الله تعالى فيها « وخلقهم » .. أى أن خلق الله للجن — تلك القوى الخفية — أمر محقق ، فكيف يكون المخلوق مساوياً للخالق فى صفاته ؟ .. كيف يكون شريكاً له فى العلم وفى غيره من صفات الكمال ؟. إذ المفروض فى الشريك أن يكون على قدم المساواة مع شريكه فى الطاقات والقدرات والصفات . وإلا لا يكون شريكا له . فالجن — وهم مخلوقون لله — ليست لديهم صلاحية لأن يدعى لها أنها شركاء لله) . وقد جاء الزعم الثانى فى نفس الآية فى قول الله جل شأنه « وخرقوا له بنين ، وبنات بغير علم (أى اختلقوا كذبا — مرة بعد أخرى — أن لله ولداً . فقد جاء فى سورة الصافات ادعاء هؤلاء الماديين المكيين فى قوله تعالى « ألا ! ، إنهم من إفكهم ليقولون ولد الله ، وإنهم لكاذبون » سبحانه وتعالى عما يصفون (أى تنزيها لله جل شأنه عما يدعونه ويزعمون أنه من صفاته . وبذلك نفت الآية هذا الادعاء فى صيغة عامة) . وقد ردت الآية التالية بعدها على هذا الادعاء الكاذب بالتفصيل ، فقال الله تعالى) : « بديع السموات والأرض (أى هو منشىء السموات والأرض على غير نظير ومثل . ومن ينشىء الكون على هذا النحو : لايكون محتاجاً إلى شىء ما عداه . والمستغنى عن غيره ليست له حاجة إلى ولد . لأن الولد عادة يطلب ليستعان به ، استعانة مادية أومعنوية . وبذلك يتضح فساد هذا الزعم) أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟.

(وهذا رد ثان على الزعم ، وهو ليس لله زوجة ، حتى يستطيع أن ينسل منها . فكيف يكون له ولد ، والولد يأتى عادة من ذكر وأنثى ؟ وعندما ينسب إلى الله : الولد يوضع عندئذ فى مستوى الإنسان) وخلق كل شىء (أى وبعد هذا .. وذاك .. فالله خالق كل شىء ، فليس هو بحاجة إلى الاستعانة بغيره . والإنسان وحده فى أسرته .. ومجتمعه ، هو الذى بحاجة إلى النسل والولد ، من أجل العصبية والتفوق العددى . لكن الخالق — والخالق لا يوصف بالخلق إلا لأنه مستغن عما سواه — غنى بذاته .. وقوى بذاته .. وعالم بذاته .. ومبدع بذاته .. ومتفرد بذاته .. إلى تلك الصفات التى له) وهو بكل شىء عليم (فيعلم الدوافع التى حملت هؤلاء المشركين الماديين على هذين الزعمين .. كما يعلم حقيقة ما فى الكون من مخلوقات) ذلكم الله ربكم ، لا إله إلا هو ، خالق كل شىء فاعبدوه ، وهو على كل شىء وكيل (وهذا هو الله المعبود ، لكم وللناس جميعاً ، هو : واحد فى ذاته وفى صفاته .. وهو خالق كل شىء ولا خالق سواه .. وهو قادر على كل شىء فى الوجود . وبوصفه — سبحانه — بهذه الصفات الثلاث مجتمعة .. ينتفى معه ما زعمه هؤلاء المبطلون من مشاركة الجن له فى علم الغيب .. أو من أن له ولداً على نحو ما للإنسان . لأن هذه الصفات تدل على الكمال المطلق والنهاية المطلقة فيما وصف به) . لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير (وبجانب تلك الدلائل التى تدل على كذب الماديين من المكيين : أن الله جل شأنه لا يدرك بالبصر . إذ ليس جسماً ، وإنما هو لطيف بعيد عن تجسيم الرؤيا البصرية ، رغم أنه يدرك الشاهد وما يحس فى هذا الوجود . وماكان بعيداً عن التجسيم لا يقبل الكثرة بالتوالد) قد جاءكم بصائر من ربكم (وهنا يتجه الرسول — عليه السلام — إلى هؤلاء الماديين بدعوته إلى القرآن وتحذيره من مغبة الموقف المعارض ، مرة أخرى ، بعد أن انكشف فساد زعمهم وسوء منطقهم . فيقول لهم : هذه آيات بينات — ويقصد القرآن — أوحى به الله إلى ، وليس من عملى ، لكم وللناس أجمعين . فافتحوا عيونكم عليه ، وراجعوا ما فيه، من غير رأى مبيت ، تحت تأثير الإلف والعادة والتقاليد) فمن أبصر فلنفسه ، ومن عمى

فعلها (فمن رآه واهتدى به فهدايته يرجع أثرها إليه وحده . ومن تجاوزه وغض النظر عنه وتجاهله ففعله يعود أثره بالمضرة عليه وحده ، كذلك) وما أنا عليكم بحفيظ (أى وليس من رسالتى : أن أرقبكم .. وأسجل عليكم أعمالكم .. وأجازيكم عليها . إنما ذلك هو الله . أما أنا فلا تخرج رسالتى بينكم : عن إبلاغها إياكم ، وتحذيركم مغبة الكفر بها) . وكذلك نصرف الآيات (أى وعلى هذا النحو : نوضح الدلائل والحجج بأمثلة عديدة ، حتى يبدو للعيان : ما هو الحق .. وما هو : الكذب والاختلاق) وليقولوا : درست (أى وبالإضافة إلى ذلك ، هناك هدف ثان ، من تنويع هذه الدلائل الواضحة ، وهو أن تسجل : جدية الأثر الذى يتركه تبليغ الدعوة بهذه الرسالة : فى التعليم والدراسة ، لمن يريد أن يتعلم ، وهو أثر يعترف به التاريخ والمصنفون) ولنبينه لقوم يعلمون (وكذلك من أهداف تصريف الآيات وتوضيحها بالأمثلة العديدة : أن نشهد الذين يعلمون — وهم الذين يقفون موقف الحياد أمام الحقائق العلمية — على تمسك الماديين بماديتهم وبباطلهم ، رغم إقامة الحجة عليهم ، حتى لا يكون لهم وجه فى الاستمرار فى المعارضة ، إلا وجه الشهوة .. والهوى .. والحرص على المصالح الخاصة ، وهى مصالح قائمة على الاستغلال للآخرين) » .

اتَّبِعْ مَآ أُوحِيَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٦﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكُواْ وَمَا جَعَلْنَٰكَ عَلَيْهِمْ حَفِيظًا وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِوَكِيلٍ ﴿١٠٧﴾

ويتجه القرآن إلى رسوله — صلى الله عليه وسلم ، ليأمره بالاستمرار فى دعوته ، رغم الاختلاق الذى يوجه إليه من الماديين .. ذلك الاختلاق الذى انكشف فساده ، وظهر باطله : « اتبع ما أوحى إليك من ربك (أى لا تتأثر بهذه المزاعم ، ولا تقف بسببها عن متابعة ما ينزل عليك من عند الله : فى تبليغه .. والقدوة فى العمل به) لا إله إلا هو (وعماد الذى يوحى به إليك .. هو دعوة التوحيد فى الألوهية) وأعرض عن المشركين (أى وغض النظر عن مزاعمهم ، بحيث لا تتأثر بها فى الاستمرار فى متابعة

دعوتك . وهذا الإعراض عنهم بهذا المعنى لايعني : قطع الدعوة بالنسبة إليهم ، وعدم متابعتها : فى تحذيرهم ، وبيان عاقبة أمرهم فى الإصرر على الكفر والمعارضة . والمطلوب إذن من الإعراض عن المشركين .. ليس هو الكف عن تحذيرهم .. وإنما هو عدم الاهتمام ، أو عدم الالتفات إلى ما زعموه من مزاعم هنا . فزاعمهم كثيرة : إن فرغوا من واحدة.. أعقبوها بأخرى . وهى كلها مزاعم واضحة فى بطلانها . وقوله فى الآية : « اتبع ما أوحى اليك من ربك » . بضيغة عامة وعلى نحو مطلق فى قوله : اتبع .. يؤكد ما شرح من الغرض من الإعراض عن المشركين) . ولو شاء الله ما أشركوا (ثم من جهة أخرى : من أسباب وجوب عدم اهتمامك بمزاعمهم ، بحيث لاتترك أثراً فى نفسك يؤثر على الاستمرار فى الدعوة . أن الله لو أراد هدايتهم . لهداهم وجنبهم الشرك ، ووفقهم إلى الإيمان به . ولكن تركهم . وحيرتهم فى ضلالهم) وما جعلناك عليهم حفيظاً (أى وسبب ثان يدعوك إلى عدم الاهتمام بمزاعمهم هو . أن رسالتك لاتتضمن رقابة أعمالهم أو الجزاء عليها . وإنما هى التبليغ فحسب . وقد قمت بها . وبذا . ليست هناك مسئولية توجه اليك بسبب بقائهم على الشرك) وما أنت عليهم بوكيل (أى وسبب ثالث يضم إلى السببين السابقين ، هو . أنك لست متكفلا بهدايتهم . فلم يدخل فى نطاق ما كلفت به . أن تضمن هدايتهم . ولهذا كله يجب أن تستمر فى تبليغ الرسالة . إليهم .. وإلى غيرهم) » .

وَلَا تَسُبُّوا۟ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ فَيَسُبُّوا۟ ٱللَّهَ عَدْوًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِم مَّرْجِعُهُمْ فَيُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٠٨﴾

وفى الوقت الذى يأمر القرآن فيه رسوله عليه السلام : بغض النظر عن مزاعمهم .. ينهاه — والمؤمنين معه — بأن لايتجهوا : إلى النيل أو السخرية مما يدعوهم شركاء : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله (وهم شركاؤهم وأصنامهم) فيسبوا الله عدواً بغير علم (أى فربما يحملهم ذلك على

استهجان ما لله والسخرية به ، ويسلكون فيما يقولون قطعاً: مسلك المعتدى.. الجاهل .. الذى لايعلم من كمال الله شيئاً . وبذلك تنصرفون أنتم عن الدعوة .. إلى السباب .. وتعرضون الله للإهانة .. وتفقدون القدوة الحسنة فى التحاج) كذلك زينا لكل أمة عملهم (ولا يمكن أن يكون الناس جميعاً أصحاب اتجاه واحد . ومسلك واحد . وإنما هم مختلفون فى الاتجاه والمسلك. وكل مجموعة من الناس لها مسلكها الخاص : تعتبره المسلك الأحسن فإذا كان هؤلاء الماديون أصحاب مسلك مسيء قائم على السباب والشتائم .. فهم فرحون به . ولكن ينبغى أن يكون مسلك المؤمنين مسلك المهذبين الذين يقدرون ما يقولون ، فى آثاره ونتائجه : إن على دعوتهم ٠٠ أو على مايعبدون ، وهو الله جل جلاله) ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون (وأنت أيها الرسول — عليك صلوات الله — والمؤمنون معك لاتفقدون شيئاً بسلوككم مسلك المهذبين ، صوناً للمولى سبحانه من التعرض للإهانة ٠ لأن كل فريق ومجموعة من الناس على اتجاه واحد يختلف عن اتجاه الآخرين ٠ ٠ سينتهى أمره إلى الله ٠ وعندئذ يخبره بما صنع وفعل ، ويجازيه عليه جزاء حسناً ٠٠ أو آخر سيئاً) » ٠

* * *

وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ۚ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِندَ اللَّهِ ۖ وَمَا يُشْعِرُكُمْ أَنَّهَا إِذَا جَاءَتْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٠٩﴾ وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَارَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا بِهِ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَنَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١١٠﴾ ۞ وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ ﴿١١١﴾

وهذا زعم آخر من مزاعم الماديين المكيين فى جانب الاعتقاد والرسالة ٠٠ والرسول ، وهو : أن القرآن غير كاف لإيمانهم برسالة الرسول عليه السلام ٠٠

وأنه لو جاء إليهم بآية مادية لآمنوا به وبرسالته ، على نحو ما ينقل عنهم في قول الله تعالى في سورة الإسراء : « **وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء ، كما زعمت ، علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ، ولن نؤمن لرقيك ، حتى تنزل علينا كتاباً نقرأه ، قل: سبحان ربي ! هل كنت إلا بشراً رسولا** » (١) .. « وأقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها (أي بذلوا ما يمكن بذله في تأكيد قسمهم بالله : على أن يؤمنوا بالرسول عليه السلام وبرسالته ، إذا جاء إليهم بأمارة مادية أخرى تدل على رسالته ، عدا القرآن . وهذا تعلل فقط لرفضهم الإيمان بالقرآن وبرسالة محمد بن عبد الله فيهم عليه الصلاة والسلام . فهم يرفضونها لعوامل أخرى تسيطر على أنفسهم ، وليس لذات المعجزة — وهي القرآن — التي جاء بها الرسول . وهذه العوامل تتصل بالابقاء على المجتمع الوثني المادي بمكة ، لأن لهم مصلحة خاصة في زعامته) قل . إنما الآيات عند الله (أي اذكر — أيها الرسول — لهؤلاء المعارضين . أن الآيات والأمارات على رسالة أي رسول هي من عند الله . هو الذي يحدد الآية التي تدل على رسالة رسول بعينه . وقد حدد القرآن — لحكمة — آية على رسالتي : فأنا لا أستطيع تغييرها . ولذا معارضتكم لرسالتي .. معارضة قائمة على تعنت وتحد) وما يشعركم : أنها إذا جاءت لايؤمنون (أي وما يدريكم ، أنتم أيها المؤمنون ، واتجه بالخطاب إليهم لأن بعضهم كان يعلق الأمل في إيمان هؤلاء الماديين في مكة ، لو استجيب طلبهم في نزول آية مادية أخرى ، تأييداً لرسالة الرسول عليه السلام .. ما يدريكم : أنهم لايؤمنون كذلك : لو نزلت الآية التي يطلبون نزولها .. إنهم لايؤمنون قطعاً . ولماذا ؟ :) ونقلب أفئدتهم وأبصارهم ، كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون (لأنا سنصرفهم عن الإيمان .. سنطبع على قلوبهم فلا يدركون بها الأدلة ونعمي

---

(١) الإسراء ٩٠ / ٩٣

أبصارهم عن أن ترى الشواهد والأمارات وتصل منها إلى الايمان بالله وحده.:
وذلك على نحو ما حيل بينهم أول مرة وبين الإيمان بالله وبرسالة المصطفى
عليه السلام .: فهم لم يؤمنوا إذ ذاك لأنا صرفناهم عن الإيمان :: وتركناهم
فى ظلام طغيانهم : حيارى ، لايهتدون إلى سبيل واضحة . فعدم إيمانهم أول
مرة — وفى كل مرة — لايعود إلى ذات الأمارة والمعجزة الدالة على رسالة
الرسول : وإنما يعود إلى أسباب نفسية .. واجتماعية . واقتصادية ، كونت
معارضتهم لتغيير المجتمع وتحويله من الوضع الفاسد القائم .. إلى وضع آخر
إنسانى ، عادل ، كريم ، وطلبهم المرة بعد الأخرى : بآية جديدة . . هو
لاستهلاك الوقت .. ومحاولة الضغط النفسى على صاحب الرسالة، عليه السلام).
ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة (أى كما طلبوا فيما تحكيه القرآن الكريم عنهم —
فى سورة الحجر — فى قوله : « وقالوا : يا أيها الذى نزل عليه الذكر (أى
القرآن — والمراد بمن نزل عليه الذكر : الرسول عليه السلام — إنك لمجنون.
لو ما تأتينا بالملائكة ، إن كنت من الصادقين »(1)) وكلمهم الموتى (أى
كما طلبوا ذلك أيضاً ، فيما يقصه سبحانه فى قوله فى سورة الجاثية : « وإذا
تتلى عليهم آياتنا بينات (ويعنى بها القرآن) ما كان حجتهم إلا أن قالوا :
ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين (أى أحضروا لنا آباءنا من قبورهم نكلمهم إن
كانت الرسالة صادقة) : قل الله يحييكم ثم يميتكم ، ثم يجمعكم إلى يوم
القيامة ، لاريب فيه ، ولكن أكثر الناس لايعلمون (أى أن بعث الموتى
من القبور أمر لاشك فيه.:وأن جمعهم مع بعضهم بعضاً أمر لاشك فيه كذلك:
وهذا أمر ميسر وسهل على الله لأنه أحياكم من نطف آبائكم ، وأماتكم
بعد حياة . فهو قادر على إعادتكم للحياة من جديد . ولكن ليس الآن وقته،
وإنما ذلك يوم الجزاء . ومن يرتاب فى ذلك فهو جاهل لايعلم مدى قدرة
الله على خلقه وتدبيره) » (2) وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا
(على نحو ما تقصه آية فى سورة الإسراء فى قول الله تعالى : « أو تأتى بالله
والملائكة قبيلا » (3) :: أى لو نفذنا ما طلبه هؤلاء الماديون : من إنزال

---

(1) الحجر ، ٧ / ٨ (2) الجاثية ٢٥ ، ٢٦
(3) الاسراء ٩٢

الملائكة .. ومن إخراج الموتى وبعثهم ليكلموهم .. ومن حشد كل شيء إليهم وجمعه أصنافاً .. ما آمنوا إطلاقاً) إلا أن يشاء الله (أى إلا فى حالة واحدة : وهى أن يكرههم الله على الإيمان . والمراد بذلك: أنهم لا يصيرون إلى الإيمان مختارين ، مهما كانت الدلائل عليه واضحة ، لفرط ما هم متأثرون به من اتجاههم المادى . ولذا أمل بعض المؤمنين فى إيمانهم لو نزلت الأمارات المطلوبة . . أمل قائم على غير تقدير سليم) ولكن أكثرهم يجهلون (إذ أغلب من يؤمل ذلك غير ملم بالوضع إلماماً واضحاً . ولذا فانصرف عنهم ، ولا تبال بأمر معارضتهم وما يزعمون . وما يطلبون . فشأنهم كشأن غيرهم من أمثالهم ممن سبقهم : « **وقال الذين لا يعلمون : لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية ، كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون . إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيرا ، ولا تسأل عن أصحاب الجحيم** »)(1) .

وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَٰبَ مُفَصَّلًا وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴿١١٦﴾ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَن يَضِلُّ عَن سَبِيلِهِۦ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١١٧﴾

ووقوف هؤلاء المعارضين الماديين هذا الموقف من رسالتك : . ليس خاصاً بك : « وكذلك : جعلنا لكل نبى عدواً : شياطين الإنس والجن ،

---

(1) البقرة ، ١١٨ ، ١١٩ .

يوحى بعضهم إلى بعض : زخرف القول غرورا (وإنما شأن كل رسالة سبقت رسالتك ، وكل نبي جاء بها قبلك : أن كان له نفر من الأعداء المعارضين ، يرى بعضهم . . ولا يرى البعض الآخر منهم ، ويسر بعضهم إلى بعض : أقوالا مموهة . . وأباطيل مزيفة يخدعون بها أنفسهم ، ثم يتمسكون بمعارضتهم وعدائهم إليك وإلى من سبقك . فالقضية قضية عامة وهي : أن كل دعوة إصلاحية . . كل دعوة إلى الحق والصواب ، وإبعاد الباطل والحيره في توجيه الناس وفي علاقة بعضهم ببعص . تلقى معارضة فيهم لا تقوم على عقل ومنطق ، وإنما قوامها الهوى ، والشهوة يحملها أشرار ذووا مصلحة خاصة : يسفر فريق منهم عن وجه معارضته .. ويختفى فريق آخر وراءه : للإثارة بالباطل المنمق). ولو شاء ربك ما فعلوه (ولو أراد الله : ألا تقوم معارضة لرسالة نبي من الأنبياء — وأنت من بينهم — لما قامت إطلاقاً ، وإنما قيامها لحكمة يعلمها .. وهي الابتلاء والاختبار للماديين الذين يتمسكون بالدنيا وحدها) فذرهم وما يفترون (وطالما كان شأن قيام المعارضة لحكمة.. فدع هؤلاء المكيين الماديين وما يختلقونه من أكاذيب يوجهونها إليك وإلى رسالتك) ولتصغى إليه أفئدة الذين لايؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقترفوا ماهم مقترفون (وحكمة الابتلاء بقيام المعارضة لرسالة أي رسول : أن الماديين في مجتمعه الذين ينكرون الآخرة ، ويرون أن الحياة البشرية هي حياة الإنسان على الأرض وحدها ، دون الآخرة . . تميل نفوسهم وأهواؤهم إليها ، فتتبع المعارضين ، وتسير في اتجاههم ، وتستمر بذلك في عدم الإيمان بالله . وهذا يزيد من عقابهم . كما أن نفوس هؤلاء الماديين تستريح لأقوال المعارضة وترضى عنها ، وبذلك تندفع في ارتكاب ما ترتكبه من أخطاء . وفي مقدمتها : قول الزور . . ومباشرة الآثام والمعاصي . وهذا يضاعف أيضاً من عذابها . وعندئذ يكون جزاؤها الشديد : بسببها هي ، وليس بسبب أحد سواها . وما ربك بظلام للعبيد ») .

أفغير الله أبتغى حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلا (أما أنت أيها الرسول — صلوات الله عليك — والمؤمنون معك :: فاثبت فى مكانك ولاتحد إطلاقاً عن حكم الله فيما أنزله إليك مفصلا وموضحاً فيه . وحكم الله فيما أنزله اليك : يناديك بالثبات وبالصبر . : ويعدك بالنجاح وبالظفر. فى الدنيا ، والجزاء الحسن فى الآخرة . . كما يعد أعداءك المعارضين : بالنكبات والشدائد فى حياتهم ، وبنار جهنم فى آخرتهم) والذين آتيناهم الكتاب يعلمون : أنه منزل من ربك بالحق (ويكفيك — للأطمئنان — أن أهل الكتاب السابقين يعلمون فى قرارة نفوسهم : أن ما أنزل عليك من القرآن هو حق موحى به من الله صدقاً . لأنه مصدق الذى بين يديه . وهذا يجعل معارضة الماديين معارضة مغلولة) فلا تكونن من الممترين (ولذا يجب أن لايراود الشك نفسك : فى نجاح دعوتك وانتصارك على أعدائك ، لانك مع الله القادر الحكيم) . وتمت كلمة ربك : صدقاً ، وعدلا ، لامبدل لكلماته (وما يطلعك الله عليه فيما يوحى به اليك فى كتابه : القرآن هو الصدق فى ذاته .. والعدل فيما يستهدف منه . وليس هناك تبديل أو تغيير فيما أتى به . فكلماته تامة فى صدقها فى الدلالة . . ومحكمة : لاتنسخ ولا تتحول عما هى . وهذا دليل واضح على أن النسخ من الله : ليس بين آيات القرآن بعضها مع بعض . إنما هو للرسالات الالهيه : فى متابعة بعضها إثر بعض) وهو السميع ، العليم (وهو الذى يسمع ما تتناجون به وعليم بما يخالج نفوسكم ، مما يتصل بالإيمان بالدعوة إلى الرسالة . وهو الرقيب على ما يدخل النفوس من شكوك وريب) وإن تطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله (التزامك — أيها الرسول — بكتاب الله : حكماً ومقياساً لما يجب أن يتبع .. هو صمام الأمان لك. لأن أكثر الناس الذين يعيشون على وجه هذه الأرض يتبعون أهواءهم فى مشورتهم إن استشرتهم واتبعت ما يشيرون به عليك . وعندئذ يضلونك عن الطريق المستقيم : فى التفكير ... والسلوك .. وهى سبيل الله . وهنا : ليست للكثرة العددية فى الرأى .. وزن فى توجيه القرآن :: وإنما العبرة : فى نوع الرأى الذى يتفق وتعاليم كتاب الله) إن يتبعون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون

«السبب فى أن أكثر من فى الأرض يضلون برأيهم وبمشورتهم عن سبيل الله إن لم يتبعوه : أنهم يسايرون الظن فيما يرون . و أنهم يخمنون تخميناً لايعتمد على واقع . ولا على دراسة جادة ، فيما يشيرون به . ومن يساير ظنه ، ويخرص فيما يقول وينصح به . يقع تحت تأثير شهوته وهواه . ولذا لا يعبر قوله ونصحه عن : الحق : ولا عن العدل . والحق . والعدل ، ركنان أساسيان فى مفهوم سبيل الله . وما ينصح به كتاب الله رسول الله عليه الصلاة والسلام باتباع كتاب الله وحده فى الحكم . وفيما يجب أن يتبع بين الناس جميعاً : فى الأمة . أو فى علاقتها مع الأعداء والمعارضين . دون الاستماع إلى ما يسمى برأى الأكثرية العددية ، لأنها أكثرية فقط . ينصح به كتاب الله أيضاً المؤمنين فى أجيالهم المتعاقبة ، بعد صاحب الدعوة صلوات الله وسلامه عليه . ولذا : إذا لم يتبعوا نصح الله وانساقوا إلى نصح الناس فى كثرتهم العددية ، ثم توالت عليهم الشدائد والنكبات . فهو خطأهم وحدهم ، وليس لأنهم مؤمنون . لأن المؤمن هو الذى يطيع الله ورسوله فيما يأمر . أو ينهى عنه) إن ربك هو أعلم : من يضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين (وما عليك أيها الرسول الا أن تثابر فى دعوتك ، دون ترقب لنتائجها ودون حدب على معرفة : من استجاب لها : ومن لم يستجب . إذ الله وحده هو الذى يعلم : من هو موفق لهداية الله . ومن هو باق فى ضلاله وحيرته . وهذا نصح من الله لكل من يشغل نفسه بالدعوة إلى دين الله فى أى زمن ، بالاستمرار فى الدعوة ، بغض النظر عن العدد : فى قلته . أو فى كثرته . الذى آمن بها . عليه أن يدعو ، وأن لايمل أو ييأس بحال . أما نتيجة دعوته فستكون حتماً —ولو بعد حين من دعوته—) »

***

فَكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كُنتُم بِآيَاتِهِ مُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾ وَمَا لَكُمْ أَلَّا تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴿١١٩﴾ وَذَرُوا ظَاهِرَ الْإِثْمِ وَبَاطِنَهُ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَكْسِبُونَ الْإِثْمَ سَيُجْزَوْنَ بِمَا كَانُوا يَقْتَرِفُونَ ﴿١٢٠﴾ وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ ۗ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ ۖ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ ﴿١٢١﴾

تنتقل سورة الأنعام الآن إلى القسم الثانى فيما يتعلق بانحرافات الماديين المكيين الخاصة : بالحلال والحرام ، بعد القسم الأول الخاص بانحرافاتهم فى العقيدة . فتطلب إلى المؤمنين بادىء ذى بدء : أن ينتهجوا منهجاً خاصاً بهم فى المطعومات ، دون رعاية لما كان عليه أو لتكم الماديون : « فكلوا مما ذكرا اسم الله عليه ، (وما ذكر اسم الله عليه هو المذكى ببسم الله ، وهذه قاعدة عامة فى إطار مافصله الله فى كتابه فى سور أخرى ، كسورة البقرة فى قوله تعالى : « **يا أيها الذين امنوا : كلوا من طيبات ما رزقناكم ، واشكروا لله ، إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم : الميتة ، والدم . . ولحم الخنزير . وما أهل لغير الله به : فمن اضطر غير باغ ولا عاد فلا إثم عليه ، إن الله غفور رحيم** » (١) . فكل مذكى ببسم الله ، فيما عدا ما حرم من الحيوان هنا . هو حلال) إن كنتم بآياته مؤمنين (أى إن تمسكتم بما فى كتاب الله فحافظوا على ما أحله لكم) . وما لكم ألا تأكلوا مما ذكر اسم الله عليه ، وقد فصل لكم ما حرم عليكم (أى وليس هناك مايمنع إطلاقاً من عدم أكل المذكى ببسم الله ، وبالأخص : أن ماحرم أكله قد وضح توضيحاً تاماً فى سور عديدة من كتاب الله : قد وضح فى سورة البقرة . وفى سورة النحل . وفى سورة المائدة) إلا ما اضطررتم

(١) البقرة ، ١٧٢ ، ١٧٣ .

إليه (ومع كون بعض المطعومات قد نص على تحريمها في كتاب الله ، فإنه عند الضرورة الماسة يحل الأكل منه بمقدار حاجة الإنسان إليه) وإن كثيراً ليضلون بأهوائهم بغير علم (ولاينبغى إطلاقا — أيها المؤمنون — بعد هذا التأكيد فيما هو حلال . وما هو حرام من المطعومات . أن تنقادوا أو تتأثروا بأولئكم الماديين فيما يتحدثون به عن الحلال والحرام : لأنهم يضلون أنفسهم وغيرهم ، ويبتعدون عن جادة الصواب باتباعهم هوى النفس فى تخبط وفى غير إدراك للأمور) إن ربك هو أعلم بالمعتدين (والله وحده هو الذى يعلم حقائق الأمور ، و بالتالى يعلم الحلال والحرام . ويعلم لذلك : هؤلاء الذين يعتدون فيما يقولون . وبالأخص فيما يتعلق بالحلال والحرام) وذروا ظاهر الإثم وباطنه ، ان الذين يكسبون الإثم سيجزون بما كانوا يقترفون (أى وتجنبوا كل عصيان ومخالفة لأمر الله ، تجنبا مطلقا : فى الظاهر والباطن على السواء . فما حدده الله لكم هنا من : حلال . وحرام ، يجب أن يطاع طاعة نفسية . قبل أن يطاع بالعمل والجوارح . إذ أن كل عاص سيلقى جزاءه حتما ، بسبب عصيانه لما أمره به الله أو نهاه عنه) ولاتأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه ، وإنه لفسق (ويعيد القرآن هنا مرة أخرى : تأكيد حل الأكل مما ذكر اسم الله عليه وذلك بالنهى عن مقابله وهو ما لم يذكر اسم الله عليه. ويعتبر أكل ما لم يذكر اسم الله عليه . فسقاً وخروجاً عن طاعة الله خروجاً واضحا) وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ، وإن أطعتموهم إنكم لمشركون (وهؤلاء الماديون المكيون — وهم أشرار فى اتجاههم ، وباتباعهم الهوى وحده : فيما يفكرون ويسلكون — يوسوس بعضهم إلى بعض : بمحاولة مجادلتكم وإنشاء حوار معكم ، رغبة فى شدكم إلى صفهم : فى الحلال . والحرام . ولكن عندئذ ستكونون مثلهم : مشركين . لأنكم — ان انجذبتم إليهم — ستأكلون مما لم يذكر عليه اسم الله . أو ذكر عليه اسم صنم من أصنامهم . وهذا باطل من أباطيلهم) » .

★★

أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَٰهُ وَجَعَلْنَا لَهُۥ نُورًا يَمْشِى بِهِۦ فِى ٱلنَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُۥ فِى ٱلظُّلُمَٰتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْكَٰفِرِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ (١٢٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ (١٢٣) وَإِذَا جَآءَتْهُمْ ءَايَةٌ قَالُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ حَتَّىٰ نُؤْتَىٰ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ رُسُلُ ٱللَّهِ ۘ ٱللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ۗ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ صَغَارٌ عِندَ ٱللَّهِ وَعَذَابٌ شَدِيدٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَمْكُرُونَ (١٢٤) فَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يَهْدِيَهُۥ يَشْرَحْ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ ۖ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُۥ يَجْعَلْ صَدْرَهُۥ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِى ٱلسَّمَآءِ ۚ كَذَٰلِكَ يَجْعَلُ ٱللَّهُ ٱلرِّجْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ (١٢٥) وَهَٰذَا صِرَٰطُ رَبِّكَ مُسْتَقِيمًا ۗ قَدْ فَصَّلْنَا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦)

إن هناك فرقاً شاسعاً بين إنسان كان ضالا فهداه الله .. كان ميتاً فأحياه حياة روحية ، يستطيع بها أن يثبت فى حركته إذا سار بين النـــاس .. وإنسان آخر أبقاه الله فى ضلاله وظلمات حيرته لا يخرج منها ، فهو متأرجح ومهتز فى حركاته وتصرفاته ، لأنه لا يرى الصواب فيتبعه : « أو من كان ميتاً (أى فى ضلال . فهو أشبه بالميت فى عدم استطاعة الحركة) فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشى به فى الناس (أى فهديناه السبيل الســـوى . وكانت هدايته هى النور الذى يمشى به . والحياة التى يحياها الآن هى الحياةالروحية بعد أن كان مجرداً عنها وهو فى ضلاله) كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها ؟ (أى أهذا الذى هديناه على نحو ما سبق : يقارن بمن حاله وصفته : أنه يعيش فى الظلمات لا يفارقها ؟ . إنه ليست هناك مقارنة بين الاثنين . والبون بينهما شاسع) كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون (ومع أنه ليست هناك مقارنة بين الطرفين : فان شيطان الضال .. وهو نفسه .. وشهوته ، قد زينت له ضلاله وحيرته ، بحيث : إنه قد يرى : أن ضلاله

يفوق هداية المهتدى فى الاطمئنان والثبات . وحتما سيزين له هواه ذلك .
وإلا لما بقى فى ضلاله . فالمشرك المادى — لوقوعه تحت تأثير اتجاهه المادى —
قد يتبجج باقناع الآخرين بحسن ما هو فيه ، وما فيه هو الحيرة وظلماتها ،
لأنه يتخيل ذلك لنفسه) . وكذلك جعلنا فى كل قرية أكابر مجرميها
ليمكروا فيها (وعلى نحو ما يزين الماديون المكيون لأنفسهم فى المجتمع المكى
حسن ما هم فيه — وما هم فيه هو الضلال — ويحاولون . أن يشدوا غيرهم
إلى صفوفهم بحجة ، أو بأخرى .. فإنه فى كل مجتمع مادى سبق —
أو لا حق فيما بعد — تظهر هذه الظاهرة قوية . وهى ظاهرة ترويج الباطل
والضلال من جانب زعماء الماديين وروادهم . ويعيشون بذلك فساداً فى أرض
المجتمع — وهم مجرمون فيما يصنعون : فى حق أنفسهم بتحسين الباطل لهم .:
وفى حق المستضعفين عداهم : بإغرائهم بما هم فيه من فساد العقيدة وعبث
السلوك) وما يمكرون إلا بأنفسهم (ولكن ترويج هؤلاء الزعماء والرواد
الماديين : لباطلهم :. وتحسين اتجاههم المادى .. ومحاولة إغراء المستضعفين
فى المجتمع الذى يعيشون فيه .. لا يصل أثره ولا تلحق تبعاته إلا أنفسهم هم
فنهاية المطاف فى الاتجاه المادى لا تتغير : وهى السقوط الحتمى ، نتيجة
صراع الأنانيات فيه ، حول المتع المادية ، من : جاه .. أو سلطة .. أو
ثروة .. أو امرأة ، مما من شأنه أن يغرى فى هذه الحياة الدنيا) وما يشعرون
(وفقط : إنهم لا يدركون عاقبة ما هم فيه .. ولا عاقبة صنيعهم ، حرصا
عليه . لأنهم يعيشون مخدرين بالموجة المادية التى أغرقتهم فى طياتها ولا يعرفون
الخروج من ظلماتها) . وإذا جاءتهم آية قالوا : لن نؤمن حتى نؤتى مثل
ما أوتى رسل الله (أى وأمارة هؤلاء الماديين المشركين فى كل مجتمع — قبل
الدعوة الإسلامية أو بعدها — أنهم لا يؤمنون بمعجزات الرسل .. ويتحدون
معجزة كل رسول بطلب غيرها مما كان لغيره . فالماديون فى مجتمع مكة مثلا
على عهد الرسول عليه الصلاة والسلام .. يرفضون القرآن كمعجزة له ،
ويطلبون معجزات من النوع المادى . لا لأنهم سيؤمنون بها ، ولكن للتحدى
فقط) الله أعلم حيث يجعل رسالته (وليسوا هم : الذين يحددون الرسول

باعترافهم برسالته : ولكن الله هو الذى يختار : أين تكون رسالته : ولذا : لا تتوقف رسالة أى رسول على اعتراف الماديين به) سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله ، وعذاب شديد بما كانوا يمكرون (والشيء المؤكد هو : أن هؤلاء الماديين فى كل مجتمع مهما روجوا من إتجاههم المادى .. ومهما غلوا وطغوا به .. فإنهم يجرمون فى حق الإنسانية بما يعيشون فيه من فساد .. وينشرونه من تحلل وانحلال . ومن أجل ذلك : هم ممتهنون عنـــد الله . وصغارهم فى تقدير الله : هو نوع من الجزاء لهم . . بالإضافة إلى عقاب الدنيا من السقوط والزوال الحتمى .. وعقاب الآخرة المحدد لأمثالهم) فمن يرد الله : أن يهديه يشرح صدره للإسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كأنما يصعد فى السماء (وإرادة الله فى هداية من يهتدى : وفى بقاء الضال فى ضلاله .. هو أن من يهديه الله يكون عنده الميل النفسى إلى الهداية .. وأن من يبقيه فى ضلاله يصرفه عن هذا الميل النفسى ، ويجعل صدره ضيقا حرجا ، بحيث يشق عليه قبول تلك الهداية ، كما يشق على الصاعد فى السماء بعد مرحلة فى صعوده .. قبول النفس الذى يساعد على بقائه على قيد الحياة . فإرادة الله فى إيمان المؤمن تتمثل فى معاونته برسالته ، مع وجود إرادته الخاصة نحو الإيمان .. وإرادة الله فى بقاء الكافر على كفره تتمثل فى عدم معاونته بهذه الرسالة .. أى بعدم الانتفاع بها ، مع وجود إرادته الخاصة نحو الكفر . وهكذا : معاونة الله للمؤمن على إيمانه .. لا تسلبه الإرادة الخاصة نحوه : وعدم معاونته للكافر على الإيمـــان : : لا تسلبه كذلك الإرادة الخاصة فى البقاء فى الكفر . والمؤمن بذلك مريد .. ومسئول .. والكافر بكفره مريد .. ومسئول . ولو أن الكافر نحى عنه جانبا : الاتجاه الذى يسيطر عليه فى عدم قبوله للإيمان كاتجاه التقاليد ، أو الاتجاه المادى .. لخلق لنفسه جواً يقربه من الإيمان .. لأزال من طريق الإيمان عقبة أو عقبات ، وبذلك يصبح الطريق مفتوحا : وإذن فى تنحية العقبات جانبا تكمن الإرادة الإنسانية نحو الإيمان . ومسئولية الإنسان إذن مرتبطة بتوجيه إرادته . وإرادة الله تتمثل فى الهداية التى يرسل بهـــا

الرسول ، هى إذن كذلك : مصدر يعين على الإيمان لو خلى الطريق إليه من الإنسان) كذلك يجعل الله الرجس على الذين لا يؤمنون (أى ومن أجل هذه المسئولية الفردية لدى الإنسان .. كان عقاب الله وغضبه على الذين لا يؤمنون ، وبقوا على كفرهم إذ لهم إرادة خاصة فى البقـاء على الكفر ، بعدم تنحية العقبات فى طريقه ، وهى عقبات الاتجاه المسيطر والحائل دون النظرة المجردة إلى قوانين الوجود والحيـاة .. وتدبير الله لكونه) . وهذا صراط ربك مستقيما (أى وهذا القرآن الذى أوحى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الصراط المستقيم من عنـد الله .. هو الطريق الواضح : لهداية البشرية .. هو المعاونة على الإيمان لمن يريد الإيمان هو الذى يمثل إرادة الله فى المساعدة على الإيمان : بخلق جـو : له .. ويؤدى نحوه . وهو مفتوح للناس جميعا . وما على الإنسان إلا أن يزيل الحوائل التى تحول دون الاتجاه إليه .. والنظر فيـه .. لا بعين البغض والكراهية .. ولكن بنظرة موضوعية فقط) قد فصلنا الآيات لقوم يذكرون (وفى هذا القرآن : توضيح لمجال الاعتقاد الصحيح .. ولمنهج العمل السليم . وإنما لأولئكم الذين يراجعون أنفسهم ، ويعودون إليها فى غيبة من العوامل المؤثرة — أو التى من شأنها أن تؤثر — عليهم . وهى عوامل البيئة التى يعيشون فيها . هؤلاء وحدهم هم الذين سيرون رؤية واضحة مفصلة : ما فيه من معالم الطريق الذى لا اعوجاج فيه إطلاقا ، نحو هداية الإنسان إلى الحق والصدق .. وهداية المجتمع إلى العدل .. والإحسان .. والروابط الإنسانية) » .

* لَهُمْ دَارُ السَّلَٰمِ عِندَ رَبِّهِمْ ۖ وَهُوَ وَلِيُّهُم بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٢٧﴾

وهؤلاء لهم دار الاطمئنان عند الله ، وهى الجنة : « لهم دار السلام عند ربهم (جزاء ما انتفعوا به : من إيمان بهداية الله .. وما انتهجوه من مسلك فى طاعة لله) وهو وليهم بما كانوا يعملون (ومع كون جزائهم : أنهـم

يستقرون فى حياتهم الأخروية ممتعين بالسلام والاطمئنان . . فإنهم يلقون جزاء آخر على عملهم ، وهو : ولاية الله عليهم ورعايته إياهم. وهذا منتهى ما يطمح إليه عاقل ، وهو أن تكون آخرته على خير ما يرجوه) » .

ويوم يحشرهم جميعا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذي أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله إن ربك حكيم عليم (١٢٨) وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا بما كانوا يكسبون (١٢٩) يا معشر الجن والإنس ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا قالوا شهدنا على أنفسنا وغرتهم الحياة الدنيا وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كافرين (١٣٠) ذلك أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلها غافلون (١٣١) ولكل درجات مما عملوا وما ربك بغافل عما يعملون (١٣٢) وربك الغني ذو الرحمة إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين (١٣٣) إن ما توعدون لآت وما أنتم بمعجزين (١٣٤) قل يا قوم اعملوا على مكانتكم إني عامل فسوف تعلمون من تكون له عاقبة الدار إنه لا يفلح الظالمون (١٣٥)

★ ★ ★

أما هؤلاء الذين استمروا على تحديهم : رسالة الرسول ، فيحشرون جميعا يوم البعث لمواجهة حسابهم العسير : « ويوم يحشرهم جميعا ، يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس (أى لحظة : أن يساقوا من غير استثناء لمواجهة الجزاء . . ويسأل منهم : أولئكم الذين يخفون أمرهم فى تدبير الشرور والصد عن سبيل الله والدفع إلى ارتكاب الآثام وضروب الفساد — على نمط

تلك الخلايا السرية للهدم والتخريب فى المجتمعات المعاصرة — عن الأعداد الكثيرة من الناس ، التى أثروا عليها وجعلوها طواعية أمرهم : فى ارتكاب الجرائم .. والفساد فى العقيدة ، تحت إغرائهم بالاتجاه المادى) وقال أولياؤهم من الإنس : ربنا ! استمتع بعضنا ببعض ، وبلغنا أجلنا الذى أجلت لنا (أى كما يسأل فى هذه اللحظة : أولئكم الآخرون الذين وقعوا تحت تأثيرهم وقبلوا منهم توجيههم .. وتبادلوا معهم الاستمتاع بعلاقة بعضهم ببعض فى الولاء والطاعة .. حتى تلك اللحظة التى تجمعوا فيها للجزاء الأخروى .. أى تصور أيها الرسول — صلوات الله عليك — تلك اللحظة الحاسمة يوم الجزاء ، التى يسأل فيها : من دبر الشر خفية . . ومن اتبعه فى العلن من الناس .. يسأل فيها كل عن عمله : ذاك عن إفساده وعبثه وحمله الآخرين بالإغراء على طاعته .. وهذا عن تبعيته وانسياقه فى طريق الإغراء .. كل : صاحب مسئولية فيما صنع . فهى لحظة ينتهى أمرها إلى المصير المحتوم ، ولا تقبل فيها شفاعة .. ولا عودة لفرصة أخرى) قال: النار مثواكم خالدين فيها إلا ما شاء الله (وإنما لسان الحال يدعوهم إلى السير .. نحو جهنم ، للعذاب والخلود فيها ، جزاء : على عمل كل منهم ، ومسئولية كل فريق فيما عمل . والله سبحانه هو وحده الذى يستطيع أن يتدخل فى أمر هذا المصير ، بصورة أو بأخرى . أما هم أنفسهم .. أما أعوانهم ، فلا يستطيعون أن يفعلوا شيئا .. ولا أن ينقضوا أمراً أبرمه الله جل شأنه) إن ربك حكيم عليم (فهو بحكمته يقدر :مدى تدخله فى مصيرهم وبعمله يعرف دقائق كل منهم ، ونتائج ما يريده نحو أى منهم) . وكذلك نولى بعض الظالمين بعضا ، بما كانوا يكسبون (وعلى نحو الترابط والولاء الذى كان قائما بين أرباب الإلحاد وأصحاب الاتجاه المادى فى مكة .. والذى تأسس على أن فريقا منهم كان يدبر فى الخفاء أمر البقاء على الإلحاد والتحدى ، وأن الفريق الآخر كان يتبع وينفذ فى صورة علنية .. على نحو هذا الترابط والولاء يوجد نظيره فى أى عهد ووقت فى المجموعات :

المماثلة فى الاعتداء :: والظلم . والأمر الذى يجمع بين أفرادها هو : مشاركة بعضهم بعضا : فى اقتراف الجرائم وارتكاب الآثام والمعاصى ، تحت تأثير المادية وإغراء اتجاهها فى التحدى والصد عن سبيل الله) . يا معشر الجن والإنس ! ألم يأتكم رسل منكم يقصون عليكم آياتى وينذرونكم لقاء يومكم هذا (ثم فى هذه اللحظة — لحظة اللقاء والجمع من أجل الجزاء — يذكر كل فريق منهم : من دبر الشر والصد عن سبيل الله فى خفاء . . ومن نفذه واتبعه فى صراحة .. من تزعم الانحراف فى التوجيه فى سرية . . ومن أعلن طاعته فى سلوكه سبيل الانحراف .. يذكر كل فريق منهم برسالة الله التى أبلغت لهم فى عهد رسولهم . وهى رسالة تدعو إلى الهـــداية وسلوك الطريق المستقيم . كما يذكر كل منهم : بأن إبلاغ الرسالة لهم : اقترن بتحذيرهم من هذه اللحظة الحرجة التى يوجدون فيها الآن لمعرفة مصيرهم المحزن ، وذلك حتى لا يؤخذوا فجأة عند ما يسمعون هذا الجزاء .. وحتى لا تكون هناك شائبة ظلم فى جانب المولى سبحانه ، عند ما يحدد لهم الجزاء . لأنهم قد علموا مقدما : بالرسالة .. وبالجزاء معا . ورسالة الرسول محمد عليه السلام : لها اعتبارها فى جزاء المخالفين إلى يوم البعث . لأنها كانت نهاية الرسالات السماوية .. إلى حلول المرحلة الثانية فى حياة الإنسان . وهى مرحلة الآخرة) قالوا : شهدنا على أنفسنا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، وشهدوا على أنفسهم : أنهم كانوا كافرين (ولم يسع هؤلاء — بعد أن ذكر كل فريق منهم بمسئوليته فى الانحراف والفساد — إلا أن يعلنوا اعترافهم : بالكفر .. وبأنهم قد غرتهم الحياة الدنيا .. أى وقعوا تحت تأثير المادية : وهذا اعتراف كامل : اعتراف بالجريمة وهى أعظم جريمة يرتكبها الإنسان نحو نفسه .. ونحو مجتمعه .. واعتراف بالدافع عليها ، وهو أخس الدوافع وأحقرها .. هو دافع المادية .. أى دافع الأنانية وحب الذات :: دافع الانتهازية .. دافع النفاق .. دافع المنفعية اللا إنسانية) ، ذلك : أن لم يكن ربك مهلك القرى بظلم وأهلهـــا غافلون (واعتراف هؤلاء بجريمتهم .. وبسبب الجريمة ، يعطى الدليـــل واضحا على أن الله

سبحانه لا يغير مجتمعا من المجتمعات .: فيبيد ويهـلك مجتمعا ، ويقيم على أنقاضه مجتمعا آخر ، هو أقرب للسلوك الإنسانى ، وفى إيمانه بالله من سابقه .. إلا بعد إنذار وتحذير : بأن البعد عن الله .: والعنجهية والكبرياء الخادع الناشىء عن غرور الإنسان بنفسه .. لا توصل إلا إلى الهزيمة فى الحياة .. والانحطاط فى مستواها .. ثم إلى الفناء والزوال نهائيا : وبإنذار الله للمجتمع المنحرف .. المندفع فى الانحراف ، يكون تغييره من الله ، بعد علم سابق بنتائج المصير .. أى لا يقع التغيير فجأة ، ولا عن غير دراية سابقة من المجتمع نفسه . وكتاب الله بين المسلمين — والناس جميعا — هو تحذيره وإنذاره إليهم .. إلى يوم البعث . ومعرفة المجتمع لمصيره لا يتوقف إلا على مدى تحديد : الفرق بين سلوكه : فى سياسته . . وفى توجيهه :: وفى الروابط التى يقيمها بين الأفراد . : وفى تحديد الأهداف التى يضعها لهم ، وبين ما فى كتاب الله من خط مستقيم : فى معاملة الناس بعضهم لبعض ، معاملة قائمة على العدل والإحسان.: والبعد عن ارتكاب الفواحش والمنكر .: والحذر كل الحذر فى معاملة الأعداء . فإن كانت الهوة واسعة.: فنهاية المصير قريبة وواقعة حتما بعد حـين) ولكل درجات مما عملوا (ولذا : هناك مستويات متعددة فى العمل بين المجتمعات — كتلك التى بين الأفراد — تقترب .. وتبتعد عما فى كتاب الله . والمصير لأى مجتمع فى قرب التغيير فيه أو فى بعده . . يرتبط بدرجات هذه المستويات : والله جل جلال شأنه على علم بها .: وغير غافل عما هى عليه) : وربك الغنى ذو الرحمة : إن يشأ يذهبكم ويستخلف من بعدكم ما يشاء كما أنشأكم من ذرية قوم آخرين (وتغيير المجتمعات أمر لا يتخلف أبداً : فهو قانون يمثل إرادة الله ، وإرادة الله حرة ، لا تتقيد بأى أمر آخر سوى ذات المولى جل شأنه ، وكانت حرية إرادته ، حرية مطلقة ، صفة من صفاته .. لأنه غنى عن غيره ، فليست له حاجة إلى الغير تحد من هذه الحرية :: ولأنه صاحب رحمة ، ولذا : ليس لديه الميل إلى الانتقام والظلم ، حتى يكون ذلك أيضا من العوامل التى تحد : ما له من إرادة مطلقة :: ولأنه

قادر قدرة تامة ، ولذا ليس هناك جانب ضعف يقلل فاعلية هذه الإرادة الحرة .: وتغيير المجتمع .. أى إبعاد مجتمع ، ووضع مجتمع آخر بدلا منه، أمر لا تبدو فيه صعوبة أكثر من إنشاء المجتمع المبعد . . بعد مجتمع آخر سبقه : وقد تم ذلك من قبل : وإذن تغيير المجتمع ظاهرة إنسانية فى حياة الناس ، تقتضيها إرادة الله ، عند وجود عوامل معينة) . إن ما توعدون لآت ، وما أنتم بمعجزين (وما وعدتم به من تغيير المجتمع عند فساده . : أمر آت حتما . لأنه قانون يمثل إرادة الله . وهى إرادة حرة مطلقة . وما وعدتم به أيضا من تحديد مصيركم فى لحظة التجمع للجزاء الأخروى: أمر آت حتما : لأنه يتبع منطق العمل . . كما يتبع المسئولية الشخصية : ومنطق العمل يقضى : بأن الحسنة جزاؤها حسنة مثلهـــا . : وبأن السيئة جزاؤها سيئة مثلها . والمسئولية الشخصية قامت على المشيئة الفردية فى العمل : فمن شاء فليؤمن ، ومن شاء فليكفر . وليس هنا ما يحول دون نفاذ إرادة الله الحرة . إذ ليست هناك قوة تعجزه ، حتى ولو اجتمع ما فى الوجـــود كله من إمكانيات وطاقات) قل : يا قوم اعملوا على مكانتكم ، إنى عامل (ومن أجل نفاذ إرادة الله نفاذاً حتميا . : فليس هنا من سبيل لاتقاء المصير السىء سوى أن تعملوا بإيمانكم بالله على أن يكون لكم وضع أمثل : فى دنياكم وفى آخرتكم . والخطاب موجه إلى الماديين المكيين أولا . . ثم إلى كل مجموعة أخرى مماثلة لهم ، تلتهم فى الزمن والوجود .. وكذا إلى كل مجتمع : تمادى فى مسلكه المادى . وهذا الخطاب هو إنذار وتحذير . وأما أنا فسأعمل طبقا لما أوحى به إلى) فسوف تعلمون : من تكون له عاقبة الدار ، إنه لا يفلح الظالمون (إذ كل مجتمع مادى ، أو تمادى فى مسلكه المادى ونسى الله واليوم الآخر . : سيعلم يقينا : المصير الحتمى : فى الدنيا والآخرة للناس جميعا . : وسيرى : أن ظلم المادية فى التوجيه لا يفلح على المدى الطويل . وأن عاقبته فى الدنيا : الهلاك والدمار .. وفى الآخرة : سوء المصير . أما عاقبة الدار فستكون للمؤمنين ، وللمجتمعات التى اتبعت سبيل الإيمان) » .

***

وَجَعَلُواْ لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ ٱلْحَرْثِ وَٱلْأَنْعَٰمِ نَصِيبًا فَقَالُواْ هَٰذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَٰذَا لِشُرَكَآئِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَآئِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى ٱللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَىٰ شُرَكَآئِهِمْ سَآءَ مَا يَحْكُمُونَ ﴿١٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ زَيَّنَ لِكَثِيرٍ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ قَتْلَ أَوْلَٰدِهِمْ شُرَكَآؤُهُمْ لِيُرْدُوهُمْ وَلِيَلْبِسُواْ عَلَيْهِمْ دِينَهُمْ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١٣٧﴾ وَقَالُواْ هَٰذِهِۦٓ أَنْعَٰمٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَّا يَطْعَمُهَآ إِلَّا مَن نَّشَآءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَٰمٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَٰمٌ لَّا يَذْكُرُونَ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهَا ٱفْتِرَآءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِم بِمَا كَانُواْ يَفْتَرُونَ ﴿١٣٨﴾ وَقَالُواْ مَا فِي بُطُونِ هَٰذِهِ ٱلْأَنْعَٰمِ خَالِصَةٌ لِّذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِنَا وَإِن يَكُن مَّيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَآءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُۥ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ﴿١٣٩﴾

وظاهرة أخرى من ظواهر المادية واستغلال الدين معاً .. ظاهرة تدخل الكهان — وهم الزعماء فى المجتمع المكى المادى — فى أموال الناس ، بما يشبه تحويلها إلى ملكية عامة تحت شعار خاص .. وإخضاعها لرقابتهم هم ، كى يظفروا من وراء هذه الرقابة بمزيد من الاستغلال المادى باسم الدين ، وهم رواده وقادته . وكانت أموال المكيين تتمثل فى نوعين : فى الزراعة .. وفى الثروة الحيوانية ، أى فى الأنعام : فتدخلوا فى شئون الزراعة بتحديدهم الأنصبة التى تخرج منها باسم الله .. أو باسم أصنامهم . إذ كان لله نصيب فيها : يصرف فى أوجه البر والخير .. للفقراء والمساكين . وكان للأصنام نصيب فيها كذلك : يصرف على الخدمة الدينية فى عبادة الأصنام . وكان الكهان أنفسهم هم أصحاب القسط الأوفر فى نصيب الأصنام . وتدخلهم فى تحديد الأنصبة كانت تراعى فيه : جودة الزراعة : فما كان جيداً حجز فيه نصيب الأصنام .. وترك ما لله فيما انخفض مستوى نموه منها . وبذلك تعود فائدة أكبر على الكهان لأنهم هم الذين يقومون بالخدمة الدينية . بالإضافة إلى ما كان يخصص باسم الله لا يصرف فى وجه القربى إلى الله . وإنما يذهب أيضاً إلى الكهان أنفسهم . وبذلك يحصلون على النصيبين معاً

باسم الدين : يحصلون على أحدهما فى صورة ظاهرة :: ويحصلون على الأخرى فى صورة مقنعة . ولولا استغلالهم الدين لما جاز لهم التدخل فى زراعة الناس إلى هذا الحد .

.. وتدخلوا فى شئون الثروة الحيوانية بتقسيمها إلى أنواع .. وتحديد ما ينبغى وما لا ينبغى ، فيما يصنع بكل نوع منها ،

(ا) فهذا نوع حجر .. أى لا يباح الأكل منه إلا لأناس معينين ، وبإذن خاص من الكهان : وهم الذين يأكلون .. وهم الذين يأذنون بالأكل لأنفسهم :

(ب) وهذا نوع آخر من الأنعام لا يركب ولا يحمل عليه شىء .. لا لقداسة له ، ولكن تضييقاً على من يملكه فى استخدامه : ولكى يتفادى المالك هذا التضييق من قبل الكهان : عليه أن يتجنب إنتاجه : أو يتقرب به إلى الأصنام . وما يتقرب به إلى الأصنام يعود إلى الكهان أنفسهم .

(ج) وهذا نوع ثالث من الأنعام والماشية لا يذكر عليه اسم الله عند ذبحه .. بل يذكر عليه اسم صنم من الأصنام : وما يذكر عليه اسم صنم من الأصنام يؤثر به ، أو يشارك فيه كهان الصنم الذى ذكر اسمه عليه : وهذه منفعة أخرى باسم الدين تعود إلى الكهان .

(د) وهذا نوع رابع من الأنعام يحدد ما فى بطونه : إن نزل ما فى البطن حيا فهو للذكور خالصة .. وإن نزل ميتا فهو قسمة بين الذكور والإناث :: أى يحل أكله لكل من الذكر والأنثى . وتمييز الذكور عن الإناث هنا من شأنه : أن يحمل الرجال — وهم العنصر الرئيسى فى المجتمع القبلى — على استمرار الطاعة للكهان . وباستمرار طاعتهم يستمر انتفاع الكهان بالنظام الدينى القائم .

وتجاوز تدخل الكهان : أموال الناس التابعين لهم ٠٠ إلى أبنائهم .
فكانوا يوصون بقتل بعض الأولاد ، تضحية وقربانا إلى الأصنام ، كأمارة
على الطاعة والإخلاص لهم :

وطالما ينسب الكهان إلى الدين ٠٠ كان تدخلهم باسم الله ، وهذا افتراء
عليه منهم ٠ والتابعون لهم كانوا لا ينكرون الله ، ولكن كانوا يشركون
معه معبودات أخرى ، على عادة الماديين ٠ إذ المعبودات الأخرى فى نظر
الماديين تمثل المنافع المادية التى يرتقبها المشرك من عبادته إياها ٠٠ بينما عبادة
الله تمثل القيم الروحية الإنسانية ، وهى القيم الدافعة إلى الترابط بين الناس ،
على أساس : من المحبة والتعاون :

وما ذكرته هذه الآيات هنا هو تصنيف للاستغلال الدينى ٠٠ وتوضيح
لمدى تدخل الكهان فى شئون الأموال والأولاد ، لمصالح خاصة تعود
عليهم ٠ وهذا الاستغلال الدينى على عهد الشرك والوثنية بمكة ٠٠ لا يختلف
عن الاستغلال الإيديولوجى فى القرن العشرين ٠ فكلاهما قائم على التدخل
فى شئون الأموال والأولاد ٠٠ وكلاهما يهدف إلى مصلحة خاصة ، تحت
شعار خادع ٠٠ كلاهما حد مسىء من حرية التصرف الخاصة ٠٠ وكلاهما
مضلل فى واقع الأمر ٠٠ وكلاهما ناشىء عن الطمع والجشع والأنانية :
« وجعلوا الله مما ذرأ (أى مما خلق) من الحرث (وهو الزراعة)
والأنعام : نصيبا ، فقالوا : هذا لله بزعمهم ، وهذا لشركائنا (أى
تدخلوا فى شئون الأموال : فى الزراعة والحيوان . وحددوا حسب
ما يهوون : النصيب الذى يخرج منها باسم الله ٠٠ والنصيب الآخر الذى
يخرج منها باسم الأصنام والشركاء ٠ وما كان يهوون هو أن يختاروا
لأصنامهم من الأجود) فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله ، وما كان
لله فهو يصل إلى شركائهم (أى ومع تفضيلهم الأصنام عن الله فى
اختيار الأنصبة من الأموال ٠٠ فكان ما يحدد لله فى أموال الناس لا يذهب
إلى وجهه الصحيح فى الإنفاق على الفقراء والمساكين . بل كان يذهب

إلى خدمة الأصنام والشركاء . بالإضافة إلى أن ما كان للشركاء لا يذهب منه كذلك شيء فى سبيل الله . وإنما يتجه به إلى خدمة الأصنام . وإذن ما لله .. وما للأصنام فى أموال الناس بعد التدخل فى شأنها من قبل الكهان .. تعود منفعته على الكهان وحدهم) ساء ما يحكمون (أى ساءوا فى حكمهم أولا : أن هذا لله .. وذاك للأصنام .. وساءوا فى حكمهم ثانيا : فى أن ما حدد لله يذهبون به إلى الأصنام ، على أن شأنها متساو مع الله جل جلاله . فما لله كان يجب أن يختار من أجود الأنواع فى الأموال . ثم الله جل جلاله ليس كمثله شيء فى الاعتبار والكمال : فإساءتهم فيما حكموا إساءة مزدوجة . هذا بغض النظر عن أنهم هنا يأكلون أموال الناس بالباطل) . وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم (وعلى نحو تدخل الكهان فى أموال الناس فى الزراعة بتحديد نصيب الله ، ونصيب الأصنام .. تدخلهم فى الأسر ، وتحديدهم من يجب أن يضحى به من الأولاد قربانا للأصنام إذلالا لهم ، وحملا على الطاعة والتردى . وفى الوقت نفسه إمعانا فى إفساد دينهم الذى ورثوه عن اسماعيل قبل الشرك ، وخلطه بما ليس منه . بحيث يصبح لاترى معالم الروحية فيه . وإنما يرى فيه وجه المادية وحدها) ولو شاء الله ما فعلوه (ولكن ما تم من الكهان فى شئون الأموال الزراعية ، وشئون الأسر إلى هذا الحد لم يكن خارجا عن إرادة الله فذرهم وما يفترون (ولذا . يجب أن تتركهم أيها الرسول — عليك صلوات الله — فيما يكذبون به على الله كذبا عظيما . إذ فيما تدخلوا فيه على هذا النحو .. تدخلوا باسم الله ، وادعوا أن علم ذلك جاء إليهم عن طريق الجن : إذ كانت تسترق السمع من السماء ، عند حديث الله للملائكة . وقد كذب الله هذا الادعاء تكذيبا قاطعا فى سورة الجن ، فى قوله تعالى « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً . إلا من ارتضى من رسول ، فانه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً . ليعلم أن قد أبلغوا رسالات ربهم ، وأحاط بما

لديهم ، وأحصى كل شيء عدداً[1]) » . وقالوا : هذه أنعام وحرث
حجر ، لا يطعمها إلا من نشاء (وتدخلوا أيضا مرة أخرى فى أموال
الناس : زراعة ، أو ثروة حيوانية ، لصالحهم هم : فحجزوا بعض الماشية
وبعض أنواع الزراعة ، وجعلوا الأكل منها مباحا : لمن يشيرون بهم ..
وبإذنهم فقط) بزعمهم (وهذا التدخل منهم .. هو زعم منهم فحسب ..
وبعيد كل البعد عن أن ينسب إلى الله تعالى) وأنعام حرمت ظهورها (كما
تدخلوا فى شئون الماشية والثروة الحيوانية على العموم فحرموا استخدام
بعضها للركوب ، حتى ولو فى موسم الحج ، وضيقوا بذلك على أصحابها)
وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها (وحرموا - أيضا - ذكر اسم الله على
بعض منها عند ذبحها ، على أن يذكر اسم صنم من الأصنام عليها) افتراء
عليه (وهذا التحريم .. وذاك ، كذب عظيم على الله) سيجزيهم بما كانوا
يفترون (ولذا : سيلحقهم عذاب الله ، بسبب كذبهم وفجرهم فيه) .
وقالوا : ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ،
وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء (وتدخوا بالتحريم وبالحل ، وبالتحديد
فى هذا وذاك : مرة أخرى ، وفى شئون الثروة الحيوانية كذلك . تدخلوا
فجعلوا ما فى بطون الأنعام إن خرجت حية . . للرجال فقط : وإن خرجت
ميتة أجازوها للرجال ولزوجاتهم معا ، استمالة للرجال وكسبا لهم فى طاعتهم)
سيجزيهم وصفهم (ولكن الله جلت قدرته سيعاقبهم على ما وصفوا هنا
من حلال ... وحرام . : وما خصوا به هذا الفريق ، أو ذاك) إنه حكيم
عليم (وهو سيجازيهم على ذلك فى دنياهم ، وفى آخرتهم . لأنه لا يترك
أكابر المجتمع وزعماءه يعيثون فيه فساداً ، ويروجون الباطل فى الاعتقاد،
استغلالا للضعفاء والمستضعفين. فحكمته تقضى بتغيير المجتمع عندئذ.وعلمه
بمستقبل الأمور كفيل بأن ما يقع منه . يقع لمصلحة البشر حتما) » .

**

---

(١) الجن ، ٢٦ - ٢٨

﴿ قَدْ خَسِرَ ٱلَّذِينَ قَتَلُوٓاْ أَوْلَٰدَهُمْ سَفَهًۢا بِغَيْرِ عِلْمٍ وَحَرَّمُواْ مَا رَزَقَهُمُ ٱللَّهُ ٱفْتِرَآءً عَلَى ٱللَّهِ ۚ قَدْ ضَلُّواْ وَمَا كَانُواْ مُهْتَدِينَ ﴿١٤٠﴾ ﴾

ويعلن القرآن هنا إجمالا استنكاره لادعاءات المشركين الماديين بمكة من ، تحريم الحلال فيما يستمتع به من الطيبات والأرزاق . . ومن حلهم للحرام فى قتل الأولاد ، فيقول : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم (أى قد أساءوا إلى أنفسهم وجلبوا العقاب عليها من الله بقتلهم أولادهم ، فى حمق وجهل) وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله (كما قد أساءوا إلى أنفسهم مستحقين غضب الله ، بسبب تحريم ما هو حلال من النعم التى رزقهم الله بها ، مدعين كذبا : أن هذا التحريم هو من الله جل شأنه . فقد ارتكبوا تحريم الحلال بما قيدوا به أموال الزراعة . والثروة الحيوانية ، وبتقسيمها فى الحل والحرمه : إلى أنواع . . ثم فيما ارتكبوه عصيانا ومخالفة ، فنسبوا أمره إلى الله ، وأضافوا إليه : أنه صاحب الحل والحرمه ، على نحو ما جرى عليه العرف عندهم فى هذه الأموال) قد ضلوا وما كانوا مهتدين (وبما أقدموا عليه من قتل الأولاد حمقا وجهلا ، إرضاء لكهانهم ، وبتحريمهم ما أحله الله من أرزاق ، كذبا عليه . . أصبحوا من الضالين الذين لا يهتدون إلى الصراط السوى . . أصبحوا متخبطين فى شئون أنفسهم ، لا يعرفون الصواب فيها . وهكذا : كل تابع للاتجاه المادى وواقع تحت تأثيره ، لا يحكم تصرفه سوى : الحيرة . . والانتقال فيه من الضد إلى الضد ، كالذى استهوته الشياطين فى الأرض حيران) » .

۞ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ جَنَّـٰتٍ مَّعْرُوشَـٰتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَـٰتٍ وَٱلنَّخْلَ وَٱلزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أُكُلُهُۥ وَٱلزَّيْتُونَ وَٱلرُّمَّانَ مُتَشَـٰبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَـٰبِهٍ ۚ كُلُوا۟ مِن ثَمَرِهِۦٓ إِذَآ أَثْمَرَ وَءَاتُوا۟ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ ۖ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿١٤١﴾ وَمِنَ ٱلْأَنْعَـٰمِ حَمُولَةً وَفَرْشًا ۚ كُلُوا۟ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٢﴾ ثَمَـٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ ۖ مِّنَ ٱلضَّأْنِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْمَعْزِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ نَبِّـُٔونِى بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٤٣﴾ وَمِنَ ٱلْإِبِلِ ٱثْنَيْنِ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ ٱثْنَيْنِ ۗ قُلْ ءَآلذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمِ ٱلْأُنثَيَيْنِ أَمَّا ٱشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۖ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ وَصَّىٰكُمُ ٱللَّهُ بِهَـٰذَا ۚ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ ٱلنَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٤٤﴾ قُل لَّآ أَجِدُ فِى مَآ أُوحِىَ إِلَىَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُۥٓ إِلَّآ أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُۥ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ رَبَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿١٤٧﴾

وبعد أن أعلن القرآن هنا استنكاره لما باشره الكهان ، استغلالا للدين ، ولما باشره أتباعهم من طاعة لهم : فيما حرموه وأحلوه .. لم يكتف بإعلان هذا الاستنكار . وإنما أخذ يضع حدوداً واضحة للحلال والحرام فى شأن الأموال التى تتصل بالزراعة أو بالثروة الحيوانية : إذ مسألة الأموال على جانب كبير من الأهمية ، سواء فيما يعود منها على المالكين لها ، أوما يعود

منها أيضاً على المجتمع : إن إنتاجاً أو عطاء وتنازلا لأصحاب الحاجات والمحرومين فيه ، ولذا فى وضع القرآن هنا لهذه الحدود لم يكتف بنفى ما كان عليه عرف المشركين الماديين ، ولا بنفى ما حرم على اليهود خاصة لبغيهم وظلمهم أيضاً ، وإنما أضاف إلى هذا النفى : إثبات ما يحرم وما يحل فيها ، وتسجيله مفصلا بحيث لايتلاعب فيه مرة أخرى فى وقت دون آخر ، لغرض من الأغراض :

ولعل الأهمية التى أولتها هذه السورة للأموال : فى الزراعة والثروة الحيوانية ، بهذا التوضيح والتفصيل ، ولعل الأهمية كذلك التى للأموال بصفة عامة ، بالنسبة للمجتمع وللأفراد ، وللاقتصاد القومى بصفة عامة : لعل هذا وذاك هو السبب فى تسميتها : بسورة الأنعام ، وإضافتها إلى الأنعام ، لأن الثروة الحيوانية فى شبه الجزيرة العربية — وفى المجتمع الذى تكون الأمطار فيه عاملا حيوياً فى معيشة الناس وحياتهم — هى الجانب الرئيسى فى اقتصاده ، الذى يسبق الزراعة فى آثاره على الحياة .

ويبتدىء القرآن فى وضع الحدود الواضحة للأموال ومدى التصرف فيها من المالكين لها : بالزراعة ، لأنها تسبق الثروة الحيوانية فى الوجود ، ثم يثنى بهذا الجانب الآخر ، وفيما يذكره يشير إلى نعمة الله فى هذه الأموال ، ويعقب على التصرف الباطل فيها بالأسلوب التهكمى والإنكارى ، وأخيراً يسجل ما يجب على المؤمنين : أن يتبعوه فى شأنها :

« وهو الذى أنشأ جنات معروشات وغير معروشات (والجنات المعروشات هى حدائق العنب الذى يمتد على أخشاب تحته ، والجنات غير المعروشات هى حدائق العنب الأرضى الذى لا يحتاج إلى ما يمتد فوقه أو حدائق الأشجار الأخرى من غير العنب) والنخل والزرع مختلفاً أكله (أى كما أنشأ وأخرج النخيل والزرع من أصناف مختلفة : فى اللون ، والطعم والحجم ، والرائحة) والرمان متشابهاً وغير متشابه (وكذلك الرمان بأنواعه العديدة) كلوا من ثمره إذا أثمر ، وآتوا حقه يوم حصاده (أى أبيح لكم التصرف فى هذه

الأنواع وأحل لكم أن تستمتعوا بثمارها . فلا حجر عليكم فى البيع والشراء منها .. ولا حجر عليكم فيما تأكلونه منها . ولا تدخل لأحد باسم الله فى شأنها . وكل تدخل سبق من الكهان فيها : يعتبر مصادرة للأموال الخاصة بدون وجه حق . وكل ادعاء منهم : أن ذلك كان بسبب الله، يعتبر افتراء وكذباً عليه . وكل ما يلزمكم ويجب عليكم للمصلحة العامة — وليس لمصلحة فريق أو عصابة معينة من الكهان ، أو من غيرهم — هو أن تخرجوا منها حق المحرومين ، يوم حصادها . فالأصل إذن فى أموال الزراعة هو حل التصرف لمالكها . وما يجب للمصلحة العامة .. أى لمصلحة المحرومين فى المجتمع فقط . ومعنى حل التصرف للمالك فيها : أن لا يقيد فى تصرفه فيها . من سلطة فى المجتمع ، أية سلطة كانت . دينية أو غير دينية . ولا يقيد إلا بما وجب للمصلحة العامة فقط) ولا تسرفوا ، إنه لا يحب المسرفين (أى ولا تحيدوا عن هذا الأصل فى أموال الزراعة . فلا تتبعوا أية تعاليم أخرى فى شأنها ، غير ما جاء هنا فيها .. حتى لا تكونوا من المسرفين الذين يكفرون بالله وبرسالة رسوله صلى الله عليه وسلم .. لا تكونوا من الماديين المشركين الذين يستسلمون للطغيان والانحراف . فالله لا يحب هؤلاء الكافرين الذين أسرفوا بكفرهم ، وخرجوا عن معالم الطريق السوى فى الهداية) . ومن الأنعام . حمولة وفرشاً ، كلوا مما رزقكم الله ولا تتبعوا خطوات الشيطان، إنه لكم عدو مبين (وهنا يبتدىء القرآن — فى هذه السورة — فى أنواع الثروة الحيوانية ، وبيان الحلال والحرام فيها . فيذكر أن الله خلق من الأنعام صنفين . صنف يستطيع أن يحمل على ظهره ، ويساعد فى التنقلات والرحلات ، وهو الحمولة . وقد حرم التصرف فيها من الكهان) . «وأنعام حرمت ظهورها » .(وصنف لا يستطيع ذلك ، وهو الفرش . والتصرف فى أى منهما من مالكه : حلال ، بالبيع أو بالأكل : فكلاهما رزق من الله للمالك ، لا قيود عليه فى التصرف فيه . والتنصيص فى الآية هنا على حل الأكل منه .. ليس معناه : عدم حل البيع والانتفاع به فى وجه آخر ، كتأجير ما يستطيع الحمل منه فى التنقلات : وإنما قصد به فحسب : نفى

ما تدخل به الكهان بالحل أو بالحرمة . وما كانوا يتدخلون به من حل ، أو حرمة . كانوا يربطونه غالباً بالأكل منها . وتشدد الآية هنا : فى أن من لم يستجب لتوجيه القرآن هنا يكون متبعاً : خطوات الشيطان : وخطوات الشيطان هى خطوات الشهوة والهوى .. خطوات المادية وانحرافها وطغيانها ، والشيطان فى تأثيره ، والمادية فى تسلطها ، على النقيض تماماً ، مما تنصح أو توصى به رسالة الله ، وتمثل فى الوقت ذاته العداوة التى لاشك فيها » للإنسان ، ولما يستهدفه من خصائص الانسانية فى تفكيره وسلوكه) : ثمانية أزواج : من الضأن اثنين ، ومن المعز اثنين ، قل « آلذكرين حرم ، أم الأنثيين ؟ أما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ نبئونى بعلم إن كنتم صادقين (ثم الأنعام التى خلقها الله ثمانية أزواج من الذكورة والأنوثة « فخلق من فصيلة الضأن « ذكراً ، وأنثى :. ومن فصيلة المعز « ذكراً ، وأنثى .فهل حرم الله الذكر من الفصيلتين ؟ أم حرم الأنثى منهما ؟ أم حرم ما فى أرحام الأنثى منهما ، قبل وضعه ؟ . إنه سبحانه لم يحرم أياً منها : لم يحرم الذكر.. ولا الأنثى :. ولا ما فى الأرحام من الضأن ، والمعز : وبذلك تكونون أنتم أيها الكهان قد افتريتم على الله كذباً فيما قلتم لأتباعكم) « وقالوا « ما فى بطون هذه الأنعام خالصة لذكورنا ، ومحرم على أزواجنا ، وإن يكن ميتة فهم فيه شركاء » . (وإذا كنتم صادقين فيما ادعيتموه هنا ، بناء على علم زودتم به من غيركم فاكشفوا مصدر هذا العلم ! : وتحدى الله سبحانه هنا المشركين المكيين — وخاصة كهانهم — بتوضيح مصدر علمهم « فى الحلال والحرام فى أموال الناس ، إن كان لهم مصدر علم : . ينفى نفياً قاطعاً « مسئولية « الجن » فيما كانوا يوهمون به أتباعهم من أنهم كانوا يعوذون برجال من الجن يقعدون من السماء مقاعد للسمع ، ليسترقوا الغيب ، ويطلعوهم عليه :. وينفى بالتالى نفياً قاطعاً « اتصالهم — أى اتصال هؤلاء الكهان — بالله فى أية صورة للوقوف على علمه المغيب) « ومن الإبل « اثنين ، ومن البقر اثنين ، قل « آلذكرين حرم أم الأنثيين ؟ أم ما اشتملت عليه أرحام الأنثيين ؟ أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا ؟ فمن أظلم ممن افترى على الله

كذباً ليضل الناس بغير علم ، إن الله لا يهدى القوم الظالمين (... وخلق من الأنعام أيضاً ، من فصيلة الإبل ، اثنين ، ذكراً ، وأنثى .. ومن فصيلة البقر اثنين ، ذكراً ، وأنثى : فهل حرم الله الذكر من الفصيلتين ؟ أم الأنثى منهما ؟ أم حرم ما فى أرحام الأنثى منهما ؟ أم كنتم أيها الكهان حضوراً ومشاهدين الله عز وجل ، عندما أوصاكم الله بالحلال ، وبالحرام ، على نحو ما أحللتم وحرمتم ؟ . إنكم تفترون على الله الكذب فيما تصفون وتقولون . وإنكم تستهدفون بقولكم ، الحلال ، والحرام ، وبتدخلكم فى أموال الناس بالباطل ، وبوضعكم قيوداً على تصرفاتهم فيها :: إضلال الناس وخيرتهم وارتباكهم ، دون أن تعلموا شيئاً من وجه المصلحة ، ودون أن يكون لكم وجه حق فيما تدخلتم فيه ، إلا إذا كانت مصلحتكم الخاصة حقاً تزعمونه لكم ، فأنتم أبعد ما تكونون عن الاستقامة .. وعن الرشد فى القيادة .. وعن الهدى فى المسيرة ، ولذا أنتم أكثر الناس ظلماً لنفسه وغيره ، لم تعرفوا أنفسكم ووضعكم فى المجتمع .. وأحرجتم الناس من أتباعكم فى أموالهم ومصالحهم ، وأحرجتم الفقراء والمحرومين فيما كان يعود عليهم من نفع من هذه الأموال) ، قل : لا أجد فيما أوحى إلى : محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ، ميتة ، أو دماً مسفوحاً ، أو لحم خنزير ، فإنه رجس ، أو فسقاً أهل لغير الله به ، فمن اضطر غير باغ ، ولا عاد ، فإن ربك غفور رحيم (وأنت أيها الرسول — صلوت الله عليك — تفنيداً لمزاعم هؤلاء الماديين فى الحلال والحرام فى أموال الناس بالباطل اعلن للناس كافة : أنه ليس فى وحى الله إلى شىء يحرم على آكل له سوى : الميتة :: والدم السائل ... ولحم الخنزير ، لأن ذلك تنفر منه النفوس ، وغير صالح للطعام ، وسوى : ما ذبح وذكر عليه اسم غير الله ، لأنه خروج عما أذن به الله ، ورده إلى جاهلية المادية : ومع تحديد أنواع ما يحرم تناولها على هذا النحو ، فإنه يجوز للمضطر وهو صاحب حاجة : أن يتناول منها بقدر يعينه على الحياة ، غير متجاوز ، حد ذلك ، وفى قرارة نفسه : أنه لم يظلمها عند الله بالإقدام على تناولها . عندئذ يغفر الله له ما أقدم عليه من تناول ما جعله حراماً عليه فى الظروف العاديه) : وعلى الذين هادوا حرمنا

كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهما ، إلا ما حملت ظهورهما ، أو الحوايا ، أو ما أختلط بعظم ، ذلك جزيناهم ببغيهم ، وإنا لصادقون (ثم اعلن كذلك : أننا حرمنا على اليهود وحدهم – بالإضافة إلى ما جاء فى رسالة الله إليك من تحريم – جزاء على بغيهم وظلمهم : كل صاحب ظفر من دابة أو طائر .. وحرمنا عليهم من البقر والغنم : شحومها ، ما عدا ما تحمله الظهور .. أو الأمعاء .. أو ما كان مختلطاً بعظم فيها . وهذا التحريم هو كل ما جاءت به الرسالة الإلهية منذ إبراهيم عليه السلام .. وإذن تحريم كهان مكة لبعض الأنعام كذب وادعاء مبالغ فى الكذب . كما تعلن لهم ولغيرهم : أننا عند وعدنا ، وأننا صادقون إذا وعدنا بأمر ما : جزاء لأحد .. أو تغييراً لمجتمع) فإن كذبوك (أى فإن كذبك الماديون المشركون .. أو كذلك اليهود فيما تلوت من وحى الله إليك : مما هو حلال .. ومما هو حرام فى الأنعام .. فلا تغضب لأنهم يكذبونك . وبدلا من ذلك) فقل : (لهم) ربكم ذو رحمة واسعة (أى تنال رحمته كل من آمن وأخطأ ، ثم تاب ورجع إليه) ولايرد بأسه عن القوم المجرمين (ولكن من كفر وأجرم فى حقه بعبادة شركاء له .. وأجرم فى حق الآخرين بإضلالهم ، وإحراجهم ، وإيقاعهم فى الحيرة ، وبالتدخل من غير علم للمصلحة العامة فى شئون أموالهم . بالحلال والحرام ، قصداً إلى منفعة مادية خاصة .. من أجرم على هذا النحو . فعقاب الله له لايدفع ، ولايرد ولا ينقص بحال .. وتأكيد الله بأن عقابه لايرد بالنسبة للقوم المجرمين فى هذا المجال – من أمثال زعماء الماديين فى مكة وهم كهنة الأصنام – يدل على اهتمام كتاب الله . بالوضع الصحيح فى أموال الناس ، ومتعها . دون الاستغلال ، وأكلها بالباطل فى أية صورة .. وتحت أى شعار ، هو . شـعار الدين .. أو شعار الشعب .. أو شعار الكادحين والمحرومين) ..

**

سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ لَوْ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشْرَكْنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَىْءٍ ۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا۟ بَأْسَنَا ۗ قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَآ ۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴿١٤٨﴾ قُلْ فَلِلَّهِ ٱلْحُجَّةُ ٱلْبَٰلِغَةُ ۖ فَلَوْ شَآءَ لَهَدَىٰكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿١٤٩﴾ قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ ﴿١٥٠﴾

وهذا ادعاء آخر من ادعاءات المشركين الماديين بمكة فى مواجهه الرسول عليه السلام . وهو ادعاؤهم : أنهم غير مسئولين عما هم فيه من شرك ووقوع تحت تأثير الاتجاه المادى فى الحياة . وعما يحرمونه ، ويحلونه فى طعامهم وأموالهم . فما هم فيه . وكذا ما كان عليه آباؤهم — بإرادة الله ومشيئته : « سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ، ولا آباؤنا ، ولاحرمنا من شىء : (أى سيتكرر القول والادعاد من هؤلاء الماديين والوثنيين بإسناد المسئولية عما هم فيه إلى الله سبحانه . وسيتكرر قولهم هذا ، لأنهم قالوه بالفعل . ويحكيه الله فى سورة النحل فى قوله « **وقال الذين أشركوا : لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شىء : نحن ، ولا آباؤنا ، ولاحرمنا من دونه من شىء ، كذلك فعل الذين من قبلهم ، فهل على الرسل إلا البلاغ المبين** » (١) . وفى سورة الزخرف ، فى قوله : **وقالوا : لوشاء الرحمن ما عبدناهم ، ما لهم بذلك من علم ، إن هم الا يخرصون** » (٢) : وسيقوله غيرهم من أمثالهم من الماديين فى كل عصر ، لا اعتقادا منهم بما يقولون ، لأنهم ينكرون الإيمان بالله . ولكن سخرية واستهزاء ، وعنجهية وتكبرا : وهم يستمرون بقولهم هذا ، لأنهم يحسون بإرادتهم : فى بقائهم فى وضعهم القائم . وبإرادتهم فى عدم التحول بماهم فيه من وضع الزعماء وأصحاب الكلمة

---

(١) النحل , ٣٥   (٢) الزخرف , ٢٠

فى المجتمع . إلى وضع المساواة مع غيرهم ممن كانوا بالأمس أرقاء لهم ، ومستضعفين لنفوذهم فللماديين المشركين إرادة فى الكفر والضلال. كماللمؤمنين بالله وحده إرادة فى الهدى والإيمان : « **فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ، ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً ، كأنما يصعد فى السماء** » (١) . فما يسند إلى الله هنا فى هذه الآية فى إيمان من يؤمن ، هو توجيه الميل النفسى لديه إلى الإيمان ، وما يسند إليه فى كفر من يكفر هو عدم ايجاد هذا الميل النفسى عنده نحو الإيمان : اما التحول إلى الإيمان . وأما البقاء فى الكفر ، فهو عمل إرادى نفسى : وعمل تطبيقى سلوكى فى الحياة ، ينبىء تماما عن مسئولية فردية وراء الإيمان . أو وراء البقاء على الكفر) كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا (وعلى نحو من هؤلاء الماديين المكيين ، كان نظراؤهم من الماديين قبلهم على عهود الرسل السابقين وكذلك مثلهم فى عهود مابعد الرسالة للرسول عليه السلام . فقد كذبوا بالرسالة ويكذبون بها ، وأتوا من الادعاءات — ويأتون بها — التى تنبىء فقط عن استهزائهم ، واستمروا فى ألا عيبهم وادعاءاتهم : حتى وقع عليهم عقاب الله مما يدل على عدم جديتهم فيما يطلبون : وفيما يدعون .) قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ (وليس لديكم : أى مصدر علم لما تثيرونه من ادعاءات وتهم . وأنتم متحدون بطلب الكشف عن هذا المصدر ، إن كان لديكم) إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون (ولكنكم لاتتبعون علما إطلاقا فيما تقولون وتصفون . لأن شأن من يعتمد على العلم فيما يقول: أن يكون موضوعيا وليس حزبيا : أن يكون مجرداً عن الهوى ، وليس تابعا للشهوة ، أو واقعا تحت تأثير الإغراء والخداع : وإنما تسلكون مسلك الظن والحدس فقط . وهو مسلك شائك لأنه لايوصل الى حق أو يقين : وفقط يجر إلى حيرة ، ويدفع إلى شبهات) : قل : فلله الحجة البالغة ، فلو شاء لهداكم أجمعين (وفى مقابل ما تقيمون غليه ادعاءاتكم من ظن وحرص فما لله ما يوحى به إلى رسوله المصطفى : لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، لأن الله حكيم عليم : ولذا لا يتطرق إليه شك ، وحجته فى

---

(١) الانعام : ١٢٥

الصدق حجة بالغة : إن فى وعده ، أو وعيده . وإن فى توجيهه وتخطيط هدايته . وهنا إذا كنتم تنسبون شرككم إلى مشيئة الله فلماذا لاتعودون بهداية المستضعفين فيكم إلى الله جل جلاله كذلك ؟ . وعندئذ لايكون لديكم مقتض لاحتقار شأنهم عندما تقولون عنهم : « أهؤلاء من الله عليهم من بيننا » أى بالإيمان ، استهانة بهم ؟ . إذ أن إيمانهم الآن لم يكن بمشيئتهم وإرادتهم ، كما تزعمون . فحجتكم حجة مغلولة ، وحجة الله صادقة .) قل هلم شهداءكم الذين يشهدون : أن الله حرم هذا ؟ (وعلى سبيل التحدى لهؤلاء الماديين ، فى كذبهم : فيما أحلوه أو حرموه . يطلب إليهم أن يجمعوا أعوانهم من كل مكان ليقولوا : إن الله حرم ذلك فى أموال الناس كما قصت الآيات السابقة : عن تدخلهم فى شئون الزراعة والثروة الحيوانية التى تمثل الاقتصاد القومى ، لمجتمع شبه الجزيرة العربية على عهد الرسالة) فإن شهدوا ، فلا تشهد معهم ، ولاتتبع أهواء الذين كذبوا بآياتنا ، والذين لايؤمنون بالآخرة ، وهم بربهم يعدلون (ولو شهد من يجمعونهم للشهادة وهم سيشهدون كذبا وباطلا ، لأنهم ماديون يرون الصدق فى القول : عقبة فى سبيل الاستمتاع بالدنيا ، والحرص على ما لهم من مستوى : اجتماعى واقتصادى — فلا تتبع شهادتهم ولاتأخذها بعين الاعتبار ، لأنها قائمة على الافتراء المحض . ولذا لاينبغى لك أن تسلك مسلكهم فى الحياة — فى أى اتجاه فيها — لأنهم يتبعون الهوى وحده . لاينبغى أن تسلك مسلك الذين يكذبون بالقرآن من أهل الكتاب والماديين على السواء ، ولا مسلك الماديين وحدهم ، وهم الذين لا يؤمنون بالآخرة ، ويشركون مع الله آلهة أخرى ... هم الذين يعدلون عن الله وحده فى الربوبية والألوهية . إلى غيره من الشركاء الذين ليس لهم نفع ، ولاضر فى واقع الأمر . فسلوك المسلك القائم على الهوى لايعرض سالكه إلى أخطار الحيرة والضلال فقط ، وإنما المسلك نفسه يضاد الصراط المستقيم تضاداً تاما ، ذلك الصراط الذى جاءت به هداية الله) »

★★

﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (١٥١) وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ (١٥٢) وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ (١٥٣)﴾

وهنا يضع القرآن — فى هذه السورة — دستوراً للاعتقاد : والعمل والسلوك ، يلتزم به المؤمنون بالله ، ويطرحون وراءه كل ماترسب فى المجتمع الإنسانى من تقاليد وأعراف . . وما نسب كذبا إلى الله ، استغلالا لسلطة أو زعامة دينية فى مجتمع سابق .

١ — فجاء فى الاعتقاد :

الإيمان بوحدة الألوهية ... وعدم الشرك والمادية :

٢ — وجاء فى الأسرة :

« أ » الإحسان إلى الوالدين .

« ب » وعدم قتل الأولاد ، خشية الفقر :

٣ — وجاء فى السلوك :

« أ » عدم اقتراف الجرائم ، وبالأخص الاجتماعية منها ، وهى الفواحش : الزنا : : والسرقة :

« ب » وعدم قتل النفس بغير حق .

٤ ـ وجاء فى المعاملات :

« أ » مباشرة مال اليتيم والضعيف بوجه عام ، بالطريق الأفضل لتنميته والمحافظة عليه .

« ب » ووفاء الكيل والميزان : أو الحرص على تحقيق المماثلة بين طرفى العقد .

« جـ » والعدل فى القول وفى الشهادة .

« د » والوفاء بالعهد .

فيقول تعالى : « قل : تعالوا : أتل ماحرم ربكم عليكم (أى هلموا ـ أيها الماديون ، وغيركم ـ لتسمعوا ما هو حرام . وما هو حلال : فى اعتقادكم وفى منهجكم العملى فى الحياة : وفى شئون الأسرة : وشئون المال . وما يتلى عليكم هنا : هو وحى من عند الله ، لاتبديل فيه) : أن لا تشركوا به شيئاً (أى تلتزموا الإيمان بوحـدته فى الألوهيه : وأنه لا إله إلا هو ، لا شريك له فى العبادة ، من : صنم . أو شىء طبيعى فى الوجود كالشمس والقمر ، والنار ، والأنهار : أو إنسان : أو صنع لإنسان : كعلم ، أو دولة ، أو مجتمع ، أو حزب ، أو مؤسسة دينية) وبالوالدين إحسانا (« فلا تقل لهما : أف ، ولا تنهرهما ، وقل لهما قولا كريما . واخفض لهما جناح الذل من الرحمـة ، وقل : رب ارحمهما كما ربيانى صغـيرا ») . ولا تقتلوا أولادكم من إملاق ، نحن نرزقكم وإياهم (واجتنبوا توجيه الاتجاه المادى فى حياتكم ، ودفعه إياكم إلى الرهبة من الفقر ، فتتجهون بصورة أو بأخرى : إلى قتل الأولاد فى أرحام أمهاتهم ، أو عندما يخرجون إلى الحياة ، تقليلا للنسل وخشية من الفقر : والله جل شأنه ، هو الذى يتكفل برزقكم ، ويرزقهم على السواء : هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا وهو الذى طلب إليكم أن تمشوا فى مناكبها ومنعطفاتها للسعى : وهو الذى جعل لكم الليل سكنا لتهدأوا فيه حتى تنشطوا فى عمل النهار : وهو الذى جعل لكم النهار ضياء لتسيروا فى عملكم من غير مشقة : وهو الذى لم يجعل

من عبادته عائقاً لكم عن العمل ، بل إذا قضيت الصلاة من يوم الجمعة — وفى كل وقت — فيجب أن تنتشروا فى الأرض وتبتغوا من فضل الله بالعمل فيما هيئه لكم : وهو الذى ضمن لكل دابة تتحرك على الأرض رزقها ، بأن هيأها للحركه وزودها بالغريزة والإلهام أحيانا ، وبالعقل أحياناً أخرى . والمادى هو الذى يعيش فى هم الفقر ، ولا يباشر نشاطاً إنسانياً لكسب قوته ، اعتماداً على النفاق والانتهازية) ولاتقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن (أى وتجنبوا ارتكاب الزنا ، والسرقة . وجميع ما يستنكره العرف والناس ... جميع ما يؤذى وما يضر : ضرراً مادياً ، أو نفسياً ، سواء : أكان ضرره ظاهراً ، أم خفياً : ونية الزنا إثم . ونية السرقة إثم : ونية كل معصية إثم) ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق (ونص على النهى عن قتل النفس بغير حق ، مع أن قتل النفس إحدى الجرائم الاجتماعية التى توصف بالفواحش ، أو المنكرات : لكثرة شيوعها فى المجتمع القبلى أو المجتمع المتخلف : على عكس السرقة ، والزنا فإنهما جريمتان ظاهرتان فى المجتمع المادى المتحضر . وقتل النفس بغير حق : أن لا يكون فى قصاص مثلا) ذلكم وصاكم به ، لعلكم تعقلون (وما وصيتم به هنا من : عبادة الله وحده : ومن الإحسان إلى الوالدين : ومن عدم قتل الأولاد خشية الفقر . ومن عدم الاقتراب من الفواحش : نية ، أو عملا . ومن عدم قتل النفس بغير حق . ما وصيتم به هنا يجب أن تفكروا فيه وفى آثاره على النفس وعلى المجتمع . يجب أن تترووا فى دراسته ثم فى اتباعه ، دون أن تتأثروا بأهوائكم وشهواتكم فى الحكم عليه) : ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن (ومباشرة مال اليتيم — وكذلك مال كل ضعيف لايباشر المال بنفسه — يجب أن تكون بالطريق الأمثل : فى تنميته ، والمحافظة عليه : والوصى عليه يجب أن يتقى الله فى كل تصرف تصرف فيه . وذلك إلى أن يبلغ الرشد فيسلم إليه : « وابتلوا اليتامى حتى اذا بلغوا النكاح (وهو سن الزواج) فإن آنستم منهم رشداً (أى حكمة ، ومنطقاً ، وتعقلا فى التصرف)فادفعوا إليهم أموالهم ») ،وأوفوا الكيل والميزان

بالقسط ، لا نكلف نفساً الا وسعها (ووفاء الكيل والميزان فى المعاملة التجارية — وكذلك كل مماثلة فى العقد بين طرفى المعاملة — يجب أن يكون متحققاً . وحرمة الربا لتخلف المماثلة فى عقده : والمماثلة فى عقود المعاملات هى العدل بين الناس . والعدل بين الناس واجب أولى لإضعاف الحقد وفسح مكان فى النفوس للمودة والتعاون : وإذا طلبت الآية هنا تحقيق المماثلة ؛ فان ذلك بحسب الطاقة البشرية : والذى يجب أن ينتفى فى المعاملات بين الناس ، هو الظلم ، وعدم الاعتداء : أو القصد إلى ذلك ، والاحتكار قصد إلى الظلم والاعتداء) وإذا قلتم فاعدلوا ، ولو كان ذا قربى (والعدل فى القول : وفى الحكم . وفى الشهادة ، أساس للوئام بين الناس ودفع العدوان عنهم .ولو كان أحد الطرفين قريباً وذا محسوبية لقائل القول ، أو لصاحب الحكم ، أو الناطق بالشهادة : ومن هنا : الروابط الحزبية : والقبلية ذات تأثير سلبى فى القول والشهادة والحكم : والمؤمنون يجب أن ينحوا عنهم كل عوامل التأثير السلبى فيما يقولونه بين الناس ، أو يحكمون به ، أو يدلون بالشهادة فيه) وبعهد الله أوفوا (واضافة العهد الى الله ليكون مضمونا : أنه فى سبيل الخير : أى لا يستهدف الاعتداء والظلم : كالاشتراك فى مؤامرة : أو ارتكاب جريمة اجتماعية كالزنا ، والسرقه ، والقتل : والوفاء بالعهد يعتمد على المسئولية الفردية ، التى يكونها ضمير الانسان بسبب خشيته من الله وعبادته إياه) ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون (وماوصاكم به هنا من : المحافظة على مال اليتيم والضعيف : ومن الوفاء بالمماثلة فى عقود المعاملة : ومن العدل فى القول والشهادة ، وهو مماثلة أيضاً : ومن الوفاء بالعهد . يتطلب التذكر والمراجعة دائماً فى معاملة بعضكم بعضاً : لأنه أساس الروابط الطيبة بينكم ، والقاعدة التى يرسى عليها تماسك الأمة والمجتمع) . وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه (وأن ما ذكر حتى الآن من : الأيمان بوحدة الألوهية : والإحسان إلى الوالدين : وعدم قتل الأولاد خشية الفقر ، وعدم اقتراف الجرائم والمنكرات وعدم قتل النفس بغير حق . ومباشرة مال اليتيم والضعيف بالطريق الأمثل : ووفاء الكيل والميزان ، والمماثلة فى كل أنواع العقود : والعدل فى القول والشهادة . والوفاء بالعهد الذى لاينطوى على ضرر لأحد : كل هذا يمثل

صراط الله المستقيم : والمؤمن بالله يجب أن يتبعه ويلتزم به فى تفكيره : وسلوكه . ومعاملاته) ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله (أى يجب أن لا يتبع أحد منكم سبلا أخرى . وهى سبل الشيطان . سبل الهوى والشهوة سبل النفس الأمارة بالسوء . وهى سبل عديدة لأنها ملتوية ، وقائمة على انحرافات الشهوات . إذ لو اتبعها أى منكم لأبعدته عن سبيل الله . وهى واحدة . هى الصراط المستقيم وحده) ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون (وما ذكر هنا كله ، إن عبر عن الطريق المستقيم . فإن سلوكه يجنبكم قلق النفس ، وحيرة المسالك ، وظلمة المادية وآثارها السلبية على حياة الإنسان والمجتمع) .

﴿ ثُمَّ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ تَمَامًا عَلَى ٱلَّذِىٓ أَحْسَنَ وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُم بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٤﴾ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ فَٱتَّبِعُوهُ وَٱتَّقُوا۟ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٥٥﴾ ﴾

وما أمرت – أيها الرسول عليك صلوات الله – بتبليغه من دستور : الاعتقاد..والعمل ..والسلوك لهؤلاء الماديين فى مكة اليوم: فقدتضمنته رسالة إبراهيم وأولاده من بعده عليهم السلام ، وطلب إليك أن تقتدى بهم جميعا «أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده » . (لأن ما جاء إليهم لم يختلف عما أوحى به إليك . ثم جاء بها كتاب موسى ، على الوجه الأفضل والأحسن، ومفصلا لكل شيء فيه ، قبل أن يباشر التحريف فية بعض الذين لم يؤمنوا برسالة محمد عليه السلام ، من أتباع موسى ، فقسموه إلى أقسام: أظهروا بعضها ، وأخفوا الكثير منها) « تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً » (وتوارد وصايا هذا الدستور إذن فى الرسالة الإلهية : منذ إبراهيم . . إلى موسى .. إلى محمد ، عليهم صلوات الله ، يؤكد : أن ما باشره كهان مكة من المشركين الماديين : من الحل ، والحرمة فى أموال الناس : فى حرثهم وأنعامهم ، ونسبوا : حله وحرمته إلى الله : لم يكن على سبيل القطع منه

وإنما اختلقوه ، مستغلين سلطتهم الدينية ، لتحقيق المصالح الشخصية لهم)
« ثم آتينا موسى الكتاب ، تماماً ، على الذين أحسن ، وتفصيلاً لكل شيء
وهدى ورحمة (أى ومن بعد : أن أوصينا إبراهيم — وأولاده من بعده —
بهذه الوصايا :: أو حينا بها إلى موسى منهم ، على الوجه الأفضل والأتم ،
وفى تفصيل لا لبس فيه ، قاصدين مما أوحينا : هداية الناس والرحمة
بهم : فكان وحينا بها إلى موسى — مع أنه من نسل إبراهيم— مرحلة
أخرى بعد مرحلة أبيه : فى التذكير والتنبيه) لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون
(كى يراجع هؤلاء الماديون أنفسهم — ومنهم ماديوا مكة — فيؤمنون
بيوم البعث ولقاء الله فى الآخرة :: وبالتالى : يؤمنون بالله وحده ، ويتبعون
الصراط السوى ، الذى تقوم دعائمه على الوصايا السابقة) . وهذا كتاب
أنزلناه مبارك (أى وبعد نزول التوراة — كتاب موسى — أنزل الله القرآن
كمرحلة أخيرة : للتنبيه والإنذار للماديين فى مكة وفى غيرها : وهو كتاب
مبارك : فيه خير الهداية :: ونمو النفس بالإيمان) فاتبعوه واتقوا ، لعلكم
ترحمون (وطالما يمثل القرآن المرحلة الأخيرة لتحذير البشرية :: فواجب
الناس جميعا — وبالأخص الماديين المشركين بينهم — أن يتبعوه : فى اعتقادهم
وعملهم : : وسلوكهم. لعل فى اتباعه ما يبعث المولى سبحانه : على أن يشملهم
برحمته ، ويغفر لهم خطايا المادية السابقة) » :

**

أَن تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أُنزِلَ ٱلْكِتَٰبُ عَلَىٰ طَآئِفَتَيْنِ مِن قَبْلِنَا وَإِن كُنَّا عَن دِرَاسَتِهِمْ لَغَٰفِلِينَ ﴿١٥٦﴾ أَوْ تَقُولُواْ لَوْ أَنَّآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْكِتَٰبُ لَكُنَّآ أَهْدَىٰ مِنْهُمْ فَقَدْ جَآءَكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَصَدَفَ عَنْهَا سَنَجْزِى ٱلَّذِينَ يَصْدِفُونَ عَنْ ءَايَٰتِنَا سُوٓءَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُواْ يَصْدِفُونَ ﴿١٥٧﴾ هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا قُلِ ٱنتَظِرُوٓاْ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾

ونزول القرآن الكريم على الرسول محمد صلى الله عليه وسلم لم يكن تنبيها ولا إنذاراً فقط بدستور الدين ووصايا ما ينبغي ، في الاعتقاد ، والعمل ، والسلوك ، بالنسبة للماديين المكيين : ولم يكن كذلك فحسب تصحيحا لوضع الأموال ومنعا للتدخل فيها لاستغلالها : وإنما كان أيضا لقطع الحجة على هؤلاء الماديين ، في عدم إيمانهم به : فنزل منبها إياهم خشية : « أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا (أي حتى لا تدعوا يوم الجزاء : أنه لم ينزل إليكم كتاب من الله يطلب إليكم الهداية والكتاب الذي أنزل من قبل : نزل على طائفتين ، هما اليهود والنصارى ، ولم ينزل إلينا) وإن كنا عن دراستهم لغافلين (وإذا كنا نحن ملتزمين — بحكم ما جاء في التوراة من أحكام عامة للبشرية ، لا تخص اليهود ، ولا النصارى وحدهم — أمام هذا الكتاب : باتباعه .. ولكنا أغفلنا دراسة ما أنزل إليهم ولم نتعلم منه شيئا . واعتذار الماديين المكيين هنا بعدم التزام ما جاء في التوراة — قبل رسالة المصطفى عليه السلام — مستندين في ذلك لعدم دراسته وتعلمه :: هو اعتذار غير منطقي ، وغير واقعي :. اعتذار صاحب الهوى ، أو المستهتر بأحداث البشرية الكبرى أن لغة التوراة إن احتجوا بعدم معرفتها ، في عدم دراسة التوراة

وتعلمها ، فقد كانوا أميين لا يعرفون القراءة والكتابة . ثم إن لغة أى كتاب سماوى لا تحول إطلاقا دون تكليف من لا يعرفون لغته ، بما جاء فيه ، من قبل الله جل جلالة ، طالما كانت مبادىء الرسالة فيه مبادىء عامة للبشرية كلها) أو تقولوا :: لو أنا أنزل علينا الكتاب ، لكنا أهدى منهم (أى وأنزل إليكم القرآن أيضاً ، حتى لا تدعوا يوم الجزاء كذلك :: أنه لو أنزل عليكم الكتاب السابق — وهو التوراة — بدلا من نزوله على اليهود والنصارى :. لكنتم أسرع إلى الإيمان برسالة الله :: وكنتم أدخل فى هداية الإيمان به ، من أولئكم اليهود والنصارى) فقد جاءكم بينة من ربكم ، وهدى ورحمة (وحجتكم هذه حجة ظاهرة البطلان ، لأن القرآن الذى أنزل على محمد صلوات الله عليه : مصدق الذى بين يديه وهو التوراة : وقد جاءكم به الرسول ، أول ما جاء للبشر . ومع ذلك هذا موقفكم ، منه : وهو موقف المعارضة والتحدى : وما جاءكم من القرآن : لا لبس فى تعاليمه ووصاياه ، ويحمل إليكم الهداية والخط المستقيم ، فى الاعتقاد ، والعمل ، والسلوك :: كما يحمل رحمة الله ، وغفرانه لأخطائكم الجسيمة التى ارتكبتموها تحت تأثير المادية وطغيانها ، وقبل الإيمان به . فعدم إيمانكم به لا يعود : إلى إنزال التوراة إلى من سبقكم من اليهود والنصارى قبلكم :. كما لا يعود إلى عدم إنزال كتاب سماوى عليكم مباشرة وإنما يعود إلى شىء واحد ، وهو وقوعكم تحت تأثير المادية . فكان الشرك منكم بالله :: وكان إنكاركم ليوم البعث والجزاء .. وكانت الجرائم الاجتماعية المنكرة :: وكان الكذب والزور .. وكانت اللا أخلاقية فى السلوك على العموم) فمن أظلم ممن كذب بآيات الله ، وصدف عنها ، سنجزى الذين يصدفون عن آياتنا ، سوء ، العذاب ، بما كانوا يصدفون (وليس هناك أظلم ممن وقع تحت تأثير المادية فكذب بكتاب الله وأعرض عنة . إذ أنه فى الوقت الذى يعرض فيه عن عن الرسالة واتباع ما جاء فيها عرضا مبينا مقصودا :: يكثر من الادعاءات المختلفة التى لا يقبلها منطق ، ولا يثبتها واقع ، فى سبيل تبرير انكاره لكتاب الله : فهو ظالم لانصرافه عن الإيمان :: وظالم مرة أخرى

لاختلاقه الكذب الواضح لتعليل موقفه من الكفر :. وسيجزى الله هؤلاء الماديين من أجل ذلك — أى من أجل مضاعفة ظلمهم — : سوء العذاب :. فإعراضهم عن دين الله ، وانصرافهم إلى ما تمليه الوثنية المادية عليهم ، لم يكن كذلك إعراضا عاديا) :. هل ينظرون : إلا أن تأتيهم الملائكة ، أو يأتى ربك ، أو يأتى بعض آيات ربك ؟ (ولظلمهم الشنيع فى الانصراف عن دين الله لا ينتظر منهم الإيمان :. حتى يوم البعث والجزاء فهل حقا : أنهم سيؤمنون ، عندما تنزل عليهم الملائكة ، أو عندما يرون الله ؟ على حسب ما طلبوا من الرسول عليه السلام : فى تحد وعناد : (« لولا أنزل علينا الملائكة ، أو نرى ربنا » :. « أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ». (وهل حقا : إنهم سيؤمنون عندما تنزل عليهم بعض الأمارات الدالة على صدق الرسول ، من الأمارات المادية التى طلبوها ، استهزاء وسخرية ؟ : « أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا » إنهم لا يؤمنون عند هــذا .. أو ذاك) يوم يأتى بعض آيات ربك لا ينفع نفسا إيمانها ، لم تكن آمنت من قبل ، أو كسبت فى إيمانها خيراً (ثم يوم يأتى بعض الأمارات المادية من الله سبحانه يكون الاختبار بالدنيا قد انتهى :. وعندئذ : النفس التى لم تؤمن حتى نزول هذه الأمارات لا تنتفع بإيمانها فى هذه اللحظة لأن إيمانها جاء متأخراً ، والنفس التى آمنت ولم تباشر العمل الصالح طبقا للإيمان من قبل ، لا ينفعها كذلك ما تباشره الآن من عمل صالح فى هذه اللحظة ، لأن مباشرتها إياه جاء متأخرا أيضا) قل : انتظروا ! ، إنا منتظرون (ومع ذلك : فتحديا لهم ، عليهم أن ينتظروا ما يؤملون فيه عبثا من تأخير إيمانهم ، حتى يأتى بعض آيات ربك ، ونحن معهم من المنتظرين : لنكشف حججهم الواهية وتعللاتهم فى سبيل الإيمان :. ولنرى من جانب آخر : أن المادية وسلطانها على النفوس ، وإغراءها المتوالى :. ليس من السهل : التخلص منها .: ثم الانتقال إلى الروحية الإنسانية التى تمثل المعانى والقيم العليا فى حياة الإنسان ، وحياة المجتمع البشرى ، إلا إذا حطم الله أصحاب الاتجاه المادى فى المجتمع ، وأتى بآخرين يرجون لقاء الله فى الآخرة ، ويسعون إلى الإيمان به فى حياتهم على هذه الأرض) ».

**

إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴿١٥٩﴾

وكما يتوجب عليك – أيها الرسول صلوات الله عليك أن لا تنتظر إيمان هؤلاء الماديين المشركين .. فكذلك يتوجب عليك أن لا تنتظر إيمان هذا الفريق من أهل الكتاب ، الذى جزأ دينه وبدده : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعا لست منهم فى شىء (أى لا تهتم بأمر هؤلاء من أهل الكتاب الذين أضاعوا دينهم المرسل إليهم بالتبعيض والتجزئة ، وبذلك أصبحوا شيعا وأحزابا .. أكثر من تبليغهم رسالة الله التى أوحى بها إليك ولا تنتظر منهم أن يستجيبوا إليك ، فور تبليغها إياهم . إذ هم طالما اختلفوا فى دينهم .. فذلك دليل على أن الأهواء قد تمكنت منهم : وبهذا أصبحوا كالماديين فى إعراضهم عن الإيمان بك لمصلحة تتعلق بزعامتهم فى طوائفهم) إنما أمرهم إلى الله ثم ينبئهم بما كانوا يفعلون (ثم دع مصيرهم إلى الله سبحانه فى دنياهم . فهو وحده الذى يعلم عاقبة أمرهم. وفى بداية الحياة الثانية فى الآخرة سيوقفهم على ما فعلوا فى الدنيا وعلى نوع الجزاء لهم . وهذه الآية تريد أن تجعل الرسول عليه السلام : واقعيا ، فى دعوته .. أى لا يؤمل الكثير فى هذين النوعين ممن يجب عليه أن يبلغ لهم الرسالة . وبذلك لا يحس بخيبة أمل فيهم .. كما لا يفاجأ برفضهم دعوته .. ثم لا يتطرق إلى نفسه شبه يأس ، بمواجهة تحديهم وادعاءاتهم واتهاماتهم .فهو يسير فى دعوته وعلى علم بالعقبات التى فى طريقها .. وعلى علم مسبق بالنتائج السلبية والإيجابية التى ستصحبها) » .

* * *

مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشْرُ أَمْثَالِهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَىٰٓ إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٦٠﴾ قُلْ إِنَّنِى هَدَىٰنِى رَبِّىٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِى رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ ﴿١٦٥﴾

وتنهى سورة الأنعام آياتها : بوضع تقييم للعمل الإنسانى يرتكز على خمس نقاط :

الأولى : أن العمل الحسن يكافأ عليه الإنسان بعشرة أمثاله من ربه . وأن العمل السيء يجازى عليه بمثل له فقط : « من جاء بالحسنة فله عشر أمثالها ، ومن جاء بالسيئة فلا يجزى إلا مثلها ، وهم لا يظلمون (فلا يظلم المحسن فى عمله بالنقص عن عشرة أمثاله .. ولا يزاد المسيء عن المثل فى الجزاء على إساءته . وجزاء الحسنة بعشر أمثالها يوضح مدى الترغيب للانسان فى أن يسلك الطريق السوى . وجزاء السيئة بمثلها يوضح كذلك : أن جزاء الله ليس انتقاما ، وإنما هو عدل) » .

الثانية : أن المقياس الذى يقاس به العمل الحسن ، والعمل السيء عند الله والناس . هو مقياس الدين القيم .. ملة إبراهيم .. إلى محمد عليه السلام : دين الوحدة فى الألوهية :) « قل : إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم . دينا قيما ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين (فاعلن أيها الرسول عليك

صلوات الله : أنك قد اهتديت بهداية الله فيما ترسمه هذه الهداية : من طريق مستقيم فى العمل : وتلك الهداية التى أوحى بها إليك الآن : هى دين إبراهيم الذى بشر به :: والذى التزمه :: والذى ندد فيه بالشرك والوثنية المادية) . قل إن صلاتى ، ونسكى ، ومحياى ، ومماتى لله رب العالمين : لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين (واعلن كذلك : أن صلاتك وحجك .. أى أن عبادتك كلها هى لله .. وأن ما تفعله فى حياتك إلى مماتك هو لله كذلك رب العالمين . لا شريك له .. وأنك أمرت : أن تدعو الناس إلى أن تكون عبادتهم .. وأعمالهم إلى نهاية أجلهم : لله وحده كذلك . وأنك أول من أسلمت فى أتباعك : وجهك لله سبحانه) قل : أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء (واعلن مع ذلك : أنه يستحيل عليك أن تتحول إلى الشرك مرة أخرى . لأن الشرك بالله يضاد المنطق الإنسانى السليم . إذ كيف يتخذ الإنسان كائنا من الكائنات رباً ، ويترك الله جل شأنه الذى هو رب كل شىء) » .

الثالثة : أن المسئولية على العمل — الحسن ، والسيء على السواء أمام الله — ليست مسئولية جماعية .. وليست مسئولية تاريخية . بل هى مسئولية شخصية وفردية : « ولا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى (أى أن كل عمل يأتى به الإنسان فهو مسئول عنه وحده . . وأن أى إنسان لايرتكب خطأ لا يحمل من خطأ غيره شيئاً . وبذلك ليست هناك خطيئة متوارثة يحملها الإنسان بالوراثة .. وليست هناك خطيئة تحملها البشرية إلى يوم البعث ، يخلصها منها مخلص يأتى من قبل الله : كل إنسان يحمل نتيجة عمله فى حياته فقط : خيراً ، أو شراً . وكل إنسان يولد بعيداً عن الذنوب والخطايا ، وما له من ذنوب وخطايا هو بفعل نفسه فقط . وهو المسئول الأول والأخير عنها) » .

الرابعة : أن كل عمل لا يقوم على الإيمان بالبعث والجزاء الأخروى ، مهما كان له من طابع الاستقامة .. فهو بعيد عن العمل الصالح : « ثم إلى

الله مرجعكم فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون (أى ويوم البعث هو الموعد النهائى للتجمع .. للاطلاع على الأعمال الصالحة والسيئة . والله سبحانه هو الذى سيفصل بين الناس فيما اختلفوا فيه من : كفر وإيمـــان . . وحلال وحرام .. وطاعة لله وتقول عليه) » .

الخامسة : تداول المجتمعات البشرية على الأرض .. وتفاضل الناس فى الأرزاق ، ابتلاء واختباراً . وتداول المجتمعات البشرية ليس هو تعاقب الأجيال . وإنما هو تغيير مجتمع إنسانى بمجتمع إنسانى آخر .. هو قيام مجتمع صالح على أنقاض مجتمع فاسد .. هو القضاء على مجتمع مادى طغى بماديته ليحل محله مجتمع إنسانى : يؤمن بالقيم الإنسانية العليا .. حتى إذا انحرف هذا المجتمع وابتدأ يتبع المادية فى تصرفاته أمهله الله إلى أن يطغى فيها ، ثم تكون عاقبته : بقيام مجتمع بديل ، متحرر من هذه المادية : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القـــول ، فدمرناها تدميرا » . وتفاضل الناس فى الأرزاق هو قانون الحياة .. وهو إرادة الله : فليس هناك تساو فى الرزق : هناك غنى ، وفقير .. وهناك فاحش الثراء ، ومعتدل الثراء . ولكن هذا التفاضل فى الرزق هو لابتلاء الغنى ، والفقير معا : لابتلاء الغنى فى غناه : هل أعطى حق الآخرين من غناه وثروته .. : هل اعتدل فى الإنفاق على نفسه وأسرته أم قتر .. هل أنفق فيما ينفع ، دون ما يضر ، أم أنفق فى الإيذاء والضرر ؟ .. وهكذا . ولابتلاء الفقير فى فقره : هل صبر وتحمل ؟ .. هل استمر على إيمانه بالله أم كفر به ؟ .. : هل امتلأ صدره حقدا على الآخرين ، أم وكل أمرهم إلى الله ؟.. وهكذا :) « وهو الذى جعلكم خلائف الأرض (أى جعل بعضكم يخلف بعضاً على هذه الأرض : بعمارتها وإصلاحها .. وبمقاومة المفاسد ، والرجوع إلى الله فى العمل والتصرفات) ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم (أى ميز بعضكم عن بعض فى الأموال وجعلكم فى مستويات : يفضل بعضها بعضا ، اختبارا وامتحانا لتصرفاتكم فيها ، بما يسير وفق هداية الله فى الأموال ، من أن ملكيتها ملكية خاصة .. ومنفعتها منفعة عامة : لمن

يملك .: ومن لا يملك : « والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق ، فما الذين فضلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم ، فهم فيه سواء ، أفبنعمة الله يجحدون » وإذا عرف : أن المجتمعات ليست خالدة ، وأنها تتغير ليخلف بعضها بعضا ، فالزعامة لا تبقى فيها إلا إذا عملت بدستور الهداية الإلهية :. وإذا عرف أيضا : أن الأموال التى بأيدى الناس هى للابتلاء والاختبار ، فقيمتها الحقيقية فى التصرف فيها : طبقا لدستور تلك الهداية :. وإذا عرف أخيرا : أن الحرمان والفقر هو للابتلاء والاختبار كذلك ، فاليأس لا يقترب من النفوس المؤمنة بربها . لأن عدم إعطاء المحروم حقه من مال الغنى لشح فى نفسه : عامل من عوامل تقويض مجتمع الأغنياء) إن ربك سريع العقاب وإنه لغفور رحيم (والله بعد ذلك : لا يترك عقاب من ينجرف عن هدايته فى الوقت الذى يغفر له خطأه إن تاب وعاد إلى الله فى : اعتقاده :. وعمله، وسلوكه ، ويشمله برحمته) » :

★ ★ ★

وبتكذيب ما تدخلت به السلطة الدينية ، عن طريق الكهان، فى أموال الناس بالباطل ، وهى أموال الحرث والأنعام ، باسم الله ، وبذلك حررت الأموال الخاصة من المصادرة والتدخل ،

... وبوضع دستور الحرام والحلال :. وما ينبغى وما لا ينبغى :. فى الاعتقاد .: والمعاملات .: والسلوك ،

وبتحديد المقياس الذى يقيم به عمل الإنسان فى الحياة :. تكون سورة الأنعام أضافت فى بناء هداية الله للانسان .: بجانب ما أزالته من عقبات فى طريق هذه الهداية ، مما كان يضعه ، ويزعمه أصحاب المادية والشرك :. أو يثيرونه ، تحديا :. للقرآن ، وصدا عن سبيل الله :

صدق الله العظيم

للمؤلف : فى التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

أولا : تفسير السور المكية :

١ ـ سورة الأنعام
٢ ـ سورة الأعراف
٣ ـ سورة يونس
٤ ـ سورة هـود
٥ ـ سورة يوسف
٦ ـ سورة ابراهيم
٧ ـ سورة الرعد
٨ ـ سورة الحجر
٩ ـ سورة النحل
١٠ـ سورة الاسراء
١١ـ سورة الكهف
١٢ـ سورة مريم
١٣ـ سورة طه
١٤ـ سورة الأنبياء
١٥ـ سورة المؤمنون
١٦ـ سورة الفرقان
١٧ـ سورة الشعراء
١٨ـسورة النمل
١٩ـ سورة القصص
٢٠ـ سورة العنكبوت
٢١ـ سورة الصافات
٢٢ـ سورة الجن
٢٣ـ جزء عم

كتب للمؤلف

١ ـ الفكر الاسلامي الحديث وصلته بالاستعمار الغربى — الطبعة الثامنة
٢ ـ تهافت الفكر المادى التاريخى بين النظرية والتطبيق — الطبعة الثانية
٣ ـ الاسلام فى حل مشاكل المجتمعات الاسلامية المعاصرة — الطبعة الثانية
٤ ـ خمس رسائل للشباب المسلم المعاصر — الطبعة الثانية
٥ ـ الجانب الالهى من التفكير الاسلامى — الطبعة الثامنة
٦ ـ نظام التامين فى هدى الاسلام وضرورة المجتمع المعاصر — الطبعة الأولى
٧ ـ الاسلام فى حياة المسلم — الطبعة الخامسة
٨ ـ رأى الدين بين السائل والمجيب جزآن معا ـ مزيدة ومنقحة — الطبعة الثالثة
٩ ـ نحو القرآن — الطبعة الأولى
١٠ـ القرآن والمجتمع — الطبعة الأولى
١١ـ من مفاهيم القرآن ـ فى العقيدة والسلوك — الطبعة الأولى
١٢ـ المجتمع الحضارى وتحدياته من توجيه القرآن الكريم — الطبعة الأولى
١٣ـ منهج القرآن ـ فى تطوير المجتمع — الطبعة الأولى
١٤ـ القرآن .. فى مواجهة المادية
١٥ـ الاسلام فى الواقع الايديولوجى المعاصر — الطبعة الثامنة
١٦ـ طبقية المجتمع الأوربى وانعكاس آثارها على المجتمع الاسلامى — الطبعة الثامنة
١٧ـ الاسلام ونظم الحكم المعاصرة — الطبعة الثانية
١٨ـ غيوم تحجب الاسلام — الطبعة الأولى
١٩ـ الدين والدولة من توجيه القرآن الكريم — الطبعة الثامنة
٢٠ـ الدين والحضارة الانسانية — الطبعة الثالثة
٢١ـ عقبات فى طريق الاسلام
٢٢ـ الاسلام والادارة ـ الحكومة ـ
٢٣ـ الاسلام والاقتصاد
٢٤ـ الاسلام دعوة وليس ثورة
٢٥ـ الاسلام واتجاه المرأة المسلمة المعاصرة

تطلب من : مكتبة وهبه ١٤ شارع الجمهورية ـ عابدين ـ القاهرة
تليفون : ٩٣٧٤٧٠

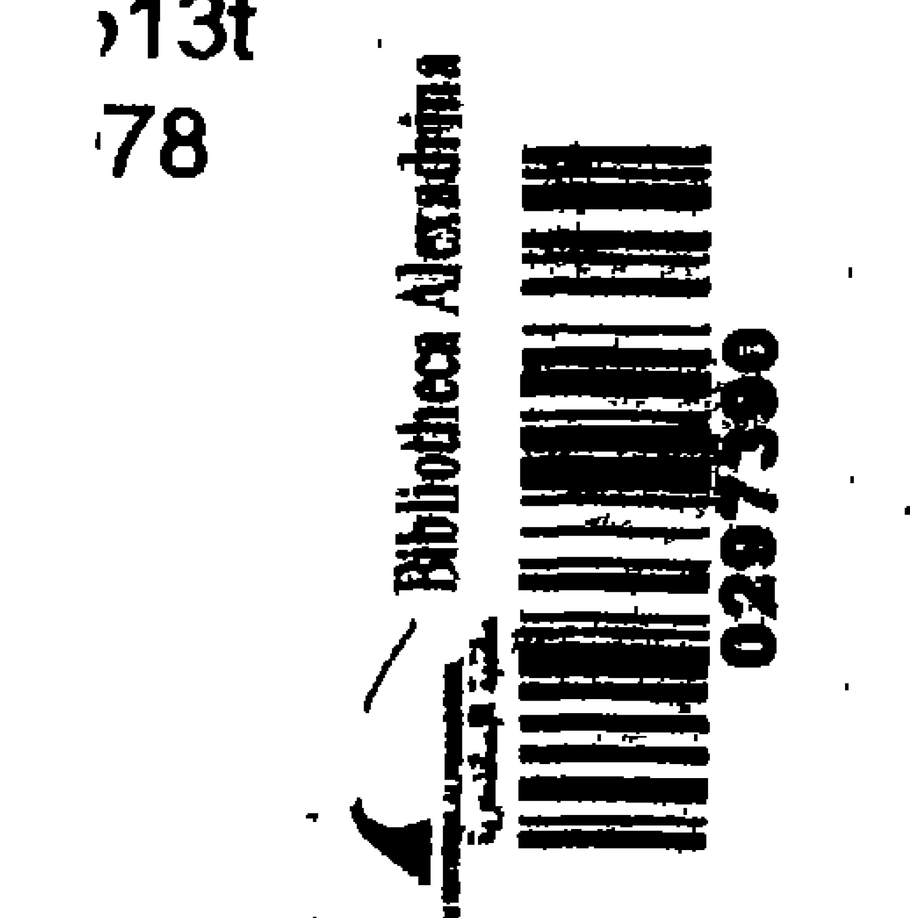
رقم الايداع ٧٨/٤٢٩٧
الترقيم ٧ ـ ٦٩ ـ ٧٢٣٦ ـ ٩٧٧

دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار لاظوغلى ـ القاهرة
ت : ٢٢٠٧٩

للمؤلف : في التفسير الموضوعى للقرآن الكريم

اولا : تفسير السور المكية :

١ ـ سورة الأنعام
٢ ـ سورة الأعراف
٣ ـ سورة يونس
٤ ـ سورة هود
٥ ـ سورة يوسف
٦ ـ سورة ابراهيم
٧ ـ سورة الرعد
٨ ـ سورة الحجر
٩ ـ سورة النحل
١٠ـ سورة الاسراء
١١ـ سورة الكهف
١٢ـ سورة مريم
١٣ـ سورة طه
١٤ـ سورة الأنبياء
١٥ـ سورة المؤمنون
١٦ـ سورة الفرقان
١٧ـ سورة الشعراء
١٨ـ سورة النمل
١٩ـ سورة القصص
٢٠ـ سورة العنكبوت
٢١ـ سورة الصافات
٢٢ـ سورة الجن
٢٣ـ جزء عم



دار غريب للطباعة
١٢ شارع نوبار (لاظوغلى) القاهرة
تليفون : ٢٢٠٧٩